

سورة الكهف

إشارات و تأويلات

الجيلانى

((ت713هـ))

إعداد: الفنان : قدرى جاد



تفسير الجيلاني/ الجيلاني (ت713هـ)

۞ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (1) قَيِّمًا
لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ
لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (4)
مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ
إِلَّا كَذِبًا (5) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ
أَسَفًا (6) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا
لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)

{ ٱلْحَمْدُ } المشتمل المتضمن على عموم الاثنينية والتوصيف بالأوصاف الجميلة حقيقٌ لائقٌ { لِلَّهِ }أَيّ:للذات المستجمع لجميع مراتب الكمال، المستحق لجميع المحامد استحقاقاً ذاتياً ووصفياً؛

لأنه { ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ } المستجمع لجميع مراتب الكمال، المستظل بظلّ الألوهية، المستحق لرتبة الخلافة والنيابة عنه سبحاه بالأصالة؛ يعني: محمداً ﷺ

(ٱلْكِتَابَ) الجامع لجميع أوصاف الكمال إجمالاً وتفصيلاً، المشتمل لعموم الأحكام المتعلقة لها، المترتبة عليها في النشأة الأولى والأخرى، مع كونه محتوياً على ما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي،

مع زياداتٍ خلت عنها تلك الكتب من الرموز والإشارات المتعلقة بالتوحيد الذاتي المسقطِ لعرق الإضافات والكثرات مطلقاً { وَ } بيَّن لهم فيه طريق التوحيد الذاتي على الوجه الأبلغ الأقوم؛

بحيث { لَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } [الكهف: 1] وانحرافاً في تبيينه، بل جعله { قَيِّماً } مستقيماً معتدلاً بين طرفي الإفراط والتفريط المذمومين عقلاً وشرعاً، وإنما أنزله إلى عبده وحبيبه ﷺ

{ لِّيُنْذِرَ } بإنذاراته الكافرين الذين كفروا بالله وجحدوا في توحيده، وعملوا السيئات المبعدة عن طريق النجاة { بَأْساً شَدِيداً } وعذاباً أليماً عظيماً صادراً { مِّن لَّدُنْهُ }أَىِّ:من عند الله العزيز المنتقم بطشاً لهم وانتقاماً منهم { وَيُبَشِّرَ } أيضاً بتبشراته { ٱلْمُؤْمِنِينَ } الموحدين.

{ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ } المقربة لهم إلى مرتبة التوحيد الصادرة عنهم على مقتضى يقينهم وعرفانهم { أَنَّ لَهُمْ }أَىِّ:أن لهم { أَجْراً حَسَناً } [2] هو التحقق بشرف اللقاء والفوز بمطالعة جمال الله والاستغراق بملاحظة وجهه الكريم .

بلا تبديل وتغيير، مزيدين المحبة واللذة والشوق، متعطشين إلى زلال التفريد بلا رواءٍ أصلاً، كما أخبر سبحانه عن حال أولئك الوالهين بقوله: (مَّاكِثِينَ فِيهِ }أَىِّ:في الأجر الحسن دائمين { أَبَداً } [3] مؤيداً مخلداً،

" أَلاْ طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِيْ "

(وَيُنْذِرَ) أيضاً أشدّ إنذارٍ بأسوأ عذابٍ ووبالٍ { ٱلَّذِينَ قَالُواْ } من فرط إسرافهم في الشرك والجحود وهم اليهود والنصارى: { ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ } الواحد الأحد الصمد، المنزه عن الأهل والولد { وَلَداً } [4] حيث قال اليهود، عزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله.

مع أنه { مَّا لَهُمْ بِهِ } بالله باتخاذه ولداً { مِنْ عِلْمٍ } يقينٍ أو ظنٍ متعلقٍ به وبمعناه، وبما يترتب عليه من النقص المنافي لوجوب الوجود؛ إذ اتخاذه إنما هو للإخلاف والمظاهرة والتزيين، وكلاهما محالان على الله لا يليقان بجنابه، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً { وَلاَ لآبَائِهِمْ }

يعني: وإن ادعوا في إثبات الولد لله تقليد الآباء والأسلاف، فليس لهم أيضاً علمُ بنقصه وعدم لياقته بجناب الحق المنزل المقدس في ذاته عن أمارات النقصان وعلامات الإمكان.

وبالجملة:

{ كَبُرَتْ }أَيِّ:جلَّت وعظُمت في الكفر وسوء الأدب مع الله { كَلِمَةً }أَيِّ:مقالتهم هذه مع أنها { تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } هفوةً بلا علم وتأملٍ، بل { إِن يَقُولُونَ }أَيِّ:ما يقولون ويقصدون بقولهم هذا { إِلاَّ كَذِباً } [5] وافتراء يفترونه على الله، وينسبونه إلى كتابهم ظلماً وزوراً،وبعدما كان حالهم في الافتراء والمراء على هذا المنوال، وشدة غيظهم وشكيمتهم مع الله على هذا المثال.

{ فَلَعَلَّكَ } يا أكمل الرسل بمحبتك ومودتك إيمانهم وانقيادهم، وبرجائك وتحننك إلى بيعتهم ومتابعتهم

{ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ }أَيِّ:قاتلها ومهلكها { عَلَىٰ آثَارِهِمْ } عندما انصرفوا عنك وذهبوا { إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ }أَيِّ:إن هم لم يؤمنوا ولم يصدِّقوا

{ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ }أَيِّ:القرآن { أَسَفاً } [6] يعني: أهلكت نفسك بكثرة التأسف والتحزن على ذهابهم وانصرافهم عنك، وعدم إيمانهم وانقيادهم بك، وإنْ بعثك وحَداك إلى إيمانهم واتباعهم غناهم ورئاستُهم وترفههم وجاههم وثروتهم وسيادتُهم بين الناس،
فاعلم أنه لا اعتداد لها ولا اعتبار بما يترتب عليها.

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلأَرْضِ) من الأصول الثلاثة التي هي الحيوان والنبات والمعدن، وما يتفرع عليها من أنواع اللذات والشهوات الجسمية الوهمية { زِينَةً لَّهَا } أو زخرفةً عليها { لِنَبْلُوَهُمْ } ونختبرهم أَيِّ: أرباب التكاليف والتدابير، المجبولين على فطرة المعرفة والتوحيد
{ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً } [7] وأتم رشداً وعقلاً في الإعراض عنها،

وعدم الالتفات إليها والاجتناب عن لذاتها الوهمية التي هي على التقضي والانصرام، وشهواتها المورثة لأنواع الحزن والآلام وأمانيها، المستلزمة لأصناف الجرائم والآثام، مع أن الضروري منها كِنّ حجْرة، ولبْس خِرقةٍ، وسدّ جوعة، وباقيها حطام ليس لها دوام، مورثة لآثام وآلام.

(وَ) متى علمت أن ما في الأرض ليس إلا زينةً وزخرفة ستفْنى وتفوت عن قريبٍ، فاعلم يقيناً { إِنَّا } بشدة حولنا وقوتنا،
وكمال قدرتنا وسطوتنا،

{ لَجَاعِلُونَ }أَيِّ:مصيّرون مبدّلون جميع { مَا عَلَيْهَا } من الذخائر والزخارف { صَعِيداً } تراباً مرتفعة أملسَ { جُرُزاً } [8] خاليةً منقطعةً من النبات بحيث لا تنبت أصلاً .

۞ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

(10) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (11) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ
الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (12) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا
رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا
إِذًا شَطَطًا (14) هَـٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ
وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ
وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (16)

أعَجِبْتَ واستبعدت عن كمال قوتنا وقدرتنا بجعل ما على الأرض صعيداً جرزاً؟ { أَمْ حَسِبْتَ } وشككت { أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ }أَيّ:قصتهم وشأنهم والكهف هو: الغار الواسع في الجبل { وَٱلرَّقِيمِ } هو إسم الجبل الذي فيه الغار، أو إسم الوادي الذي فيه، أو إسم قريتهم، أو كلبهم، أو لوحُ رصاصي أو حجريُ، رُقِمَ أو رُقِمت فيه أسماؤهم وجُعل على باب الكهف، أو أصحابُ الرقيم قومُ آخرون على اختلاف الأقوال والروايات.

وبالجملة:

{ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا } الدالة على كمال قوتنا وقدرتنا { عَجَباً } [9]أَيّ:آيةً يتعجب منها الناس، ويستبعدون وقوعها مع أنه لا شك في وقوعها؛ إذ بلغت من التواتر حداً لا يتوهم فيها الكذب قطعاً؛ إذ أمثال هذا في جنب قدرتنا الكاملة وقوتنا الشاملة سهلُ يسير،

ولو رفعتَ أيها المعتبر المتأمل الإلْفَ والعادة عن البين، وطرحتَ تكرر المشاهدة والمؤانسة عن العين، لكان ظهور كل ذرةٍ من ذرائر العالم في التعجب والاستعباد وكمال الغرابة البداعة مثل هذا،

بل أغرب وأعجب من هذا، فلك أن تراجع وجدانك وتتأمل أمرك وشأنك حتى تجد في نفسك عجائب وغرائب يدهش منها عقلك وينحسر رأيك وفهمك ويكلّ إدراكك،

وبالجملة:

استغرقتَ في بحر الحيرة والدهشة من نفسك فكيف من غيرك أذقنا بلطفك حلاوة مطالعة مبدعاتك ومشاهدة مخترعاتك بنظر العبرة والحضور.

أُذكر يا أكمل الرسل قصة أصحاب الكهف وقت { إِذْ أَوَى }أَيّْ:التجأ ورجع { ٱلْفِتْيَةُ } الخمسة أو السبعة أو الثمانية من أشراف الروم ورؤسائهم، دعاهم ملكهم دقيانوس إلى الشرك، وهم موحّدون في أنفسهم، فأبَوا وهربوا منه { إِلَى ٱلْكَهْفِ } ملتجئين.

{ فَقَالُواْ } مناجين مستغيثين من الله: { رَبَّنَآ } يا من ربَّانا بأنواع اللطف الكرم وفقّنا بشرف توحيدك وتقديسك { آتِنَا } بفظلك وجودك { مِن لَّدُنكَ } لا بسبب أعمالنا ومتقضياتها { رَحْمَةً } تنجينا عن يد عدونا وعذابه، وعن وبال ما دعانا إليه من الكفر والعصيان.

{ وَهَيِّىءْ لَنَا } أسباب معاشنا حين كنا فارّين من العدو وملتجئين إليك، مستعيذين بكنفك وجورك ووفق علينا { مِنْ أَمْرِنَا } الذي نعمل لمرضاتك ولوجهك الكريم { رَشَداً } [10]أَيّْ:هدايةً توصلنا إلى زلال توحيدك آمنين فائزين بلا خوفٍ وخطرٍ، فاستجبنا لهم مناجاتهم وأعطيناهم حاجاتهم.

وبعدما دخلوا الكهف ملتجئين بنا متضرعين { فَضَرَبْنَا } وختمنا { عَلَىٰ آذَانِهِمْ } حين كانوا راقدين { فِي ٱلْكَهْفِ } حجاباً غليظاً يمنعهم

سماع الأصوات ملطقاً وأنمناهم على هذا الوجه { سِنِينَ عَدَداً } [الكهف: 11] بلا طعامٍ ولا شرابٍ ولا شيءٍ من أسباب المعاش، وهم أحياء في صور الأموات، منقطعين عن لوازم الحياة مطلقاً سوى الأنفاس تجيء وتذهب.

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ) وأيقظناهم من منامهم بعثَ الموتى للحشر { لِنَعْلَمَ }أَيِّ:نجرّب ونميّز { أَيُّ الحِزْبَيْنِ } المختلفين بعدما اختلفوا في مدة لبثهم { أَحْصَىٰ }أَيِّ:أضبط وأحفظ { لِمَا لَبِثُواْ } من المدة { أَمَداً } [12] أَيِّ:أيهم أحفظ ضبطاً لمدة رقودهم في الكهف، فكلا الفريقين أَيِّ: اليهود والنصارى لا يعلمان مدة لبثهم حقاً مطابقاً للواقع.

بل: { نَحْنُ نَقُصُّ } من مقا مفضلنا وجودنا { عَلَيْكَ } يا أكمل الرسل { نبَأَهُم }أَيِّ:خبرَ مدة لبثهم ملتبساً { بِٱلْحَقِّ } الثابت الصحيح المطابق للواقع { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ }أَيِّ:شبّان من أرباب الفتوة والمروءة، وُفقوا من عند الله بالعقل الكامل والرشد التام إلى أن { آمَنُواْ } وأذعنوا،

{ بِرَبِّهِمْ }أَيِّ:بتوحيد مربيهم باستعمالهم عقولهم الموهوبة لهم إلى دلائل توحيده { وَزِدْنَاهُمْ } من لدّنا بعدما أخذوا بالتأمل والتدبر في آياتنا الدالة على عظمة ذاتنا وكمال أوصافنا { هُدًى } [13] وزيادةَ رشد تفضلاً وامتناناً.

(وَ) ثبتناهم في الهداية والتوحيد بأن { رَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ } محبة الإيمان والعرفان، واذكر يا أكمل الرسل وقت { إِذْ قَامُواْ } بين يدي دقيانوس الظالم الطاغي حين دعاهم إلى الشرك والكفر على رءوس الملأ، وبعدما سمعوا منه دعوته { فَقَالُواْ } بلا مبالاةٍ له ولسطوته وشوكته:

{ رَبُّنَا } الذي أظهَرَنا من كتم العدم، وأوجَدَنا في فضاء الوجود { رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ }أَيِّ:هو رب العلويات والسفليات الغيب

والشهادة والظاهر والباطن، أوجد الكل بوحدته واستقلاله في التصرف والاستيلاء بلا مشاركةٍ مشيرٍ ومظاهرةِ ظهيرٍ، هو مستحق للألوهية والربوبية { لَن نَّدْعُوَاْ } ونعبد { مِن دُونِهِ إِلـٰهاً } باطلاً؛
إذ لا مستحق لعبادة إلا هو، والله لئن دعوتنا إلهاً سواه .

{ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً } [14] أَيَّ:قولاً ذا بعدٍ عن الحق والتحقيق بمراحل، وصرنا حينئذٍ مغمورين في الشرك والكفر
وأنواع الضلال والطغيان، عصمنا الله منها.

ثم قالوا على وجه التعريض والتسفيه: { هَـٰؤُلآءِ } الضالون عن منهج الرشاد ومسلك السداد { قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ } من غوايتهم وضلالهم { مِن دُونِهِ } سبحانه { آلِهَةً } باطلةًأَيَّ:أصناماً وأوثاناً
يعبدونها لعبادة الله { لَّوْلاَ }أَيَّ:هلاَّ ؟

{ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ }أَيَّ:بحجةٍ واضحةٍ وبيّنةٍ لائحةٍ ومعجزةٍ باهرةٍ، صادرةٍ من قِبلهم دالةٍ على لياقتهم الألوهية والربوبية،
فإن لم يأتوا فهم حينئذ مفترون على الله بإثبات الشريك له

{ فَمَنْ أَظْلَمُ } وأطغى وأضل { مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ } الواحد الأحد، المستقل بالألوهية بإثبات الشريك له، سيما أمثال هذه التماثيل العاطلة { كَذِباً } [15] مخالفاً للواقع، بلا مستند عقلي أو نقلي، بل ظلماً وزوراً.

(وَ) بعدما جرى بينهم وبين دقيانوس ما جرى،
قال بعض الفتية لبعضهم: قد وجب علينا الآن الاعتزال منهم
{ إِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ } وهجرتموهم.

{ وَمَا يَعْبُدُونَ }أَيِّ:معبوداتهم من الأصنام والأوثان التي يعتقدونها آلهةً شركاءَ مع الله يعبدونها كعبادته { إِلاَّ ٱللَّهَ } الواحد الأحد الحق الحقيق بالعبادة، وأخلصتم العبادة له سبحانه بلا خوفٍ منه ودهشةٍ، كان أولى وأليقَ بحالكم.

وبالجملة:

اتفقوا على الاعتزال واختيار الغربة والفرار من بينهم، فاعتزلوهم منهم وخرجوا من أظهرهم { فَأْوُوا } وانصرفوا { إِلَى ٱلْكَهْفِ } المعهود، ملتجئين إلى ربكم من خوف عدوكم، متوكلين عليه في رزقكم ومعاشكم { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم } سبحانه ويبسط عليكم { مِّن } سعة { رَّحْمَتِهِ } وجوده ما تعيشون وتبقون بسبب أن تعلق مشيئته بإبقائكم.

{ وَ } بعدما التجأتم إلى الله، وتوكلتم عليه، مفوضين أمروكم كلها إليه، { وَيُهَيِّئْ لَكُمْ } ويسهل عليكم { مِّنْ أَمْرِكُمْ } الذي اخترتم لرضا الله ورعاية جنابه { مِّرْفَقاً } [16]أَيِّ:ما ترفقون وتنتفعون به من اللذات الروحانية يدل ما فوّتم لأنفسكم من اللذات الجسمانية .

۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا

(18) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِ
إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ
فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20)

(وَ) من كمال رفق الله إياهم، ورأفته معهم أيها الرائي
{تَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت} من مشرقها في مدة الصيف حين ازدياد حرارتها
{ تَّزَاوَرُ } أَيّ:تنقلب وتميل { عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ }
أَيّ:جانب يمين الغار؛ لئلا تؤذيهم بشعاعها وحرارتها .

{ وَإِذَا غَرَبَت }أَيّ:زالت ومالت عن الاستواء نحو المغرب.
{ تَّقْرِضُهُمْ }أَيّ:تقطعهم وتنصرف عنهم .

{ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ }أَيّ:جانب يسار الغار؛ لحفظهم عن حرِّها
{ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ }أَيّ:والحال أنهم في متسع الغر ووسطه لا في زواياه؛ بحيث لو لم يكن رعاية الله وحفظه إياهم، وصرف شعاع الشمس عنهم لكانت منتشعشعة عليهم إلى وقت الغروب.

{ ذٰلِكَ }أَيّ:نشر الرحمة وتهيئة الرفق والرأفة وصرف أذى الشمس، وكذا جميع المؤذيات عنهم { مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ } الدالة على قبوله سبحانه إياهم ورضاه عنهم كونهم مهتدين إلى توحيده، موفقين من عنده، مبتغين لرضاه، متوكلين عليه في جميع الأمور، راضين بقضائه في كل الأحوال، مخلصين له في جميع الأعمال.

(مَن يَهْدِ ٱللَّهُ) وأراد هدايته في سابق علمه وقضائه،
ومضى عليهم حكمه { فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ } الموفق على الهداية
والفوز بالفلاح المقصور عليها،

وإن لم يصدر ولم يسبق من الأعمال الصالحة
{ وَمَن يُضْلِلْ } الله وتعلق مشيئته بضلاله في سابق قضائه،
فهو الضال المقصور على الضلالة وإن صدرت عنه الأعمال الصالحة،
لا يتبدل ضلالها أصلاً،

وبعدما أراد سبحانه ضلاله { فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً } يولي أمره بالشفاعة
لينقذه من الضلال الفطري ويخرجه عن الوبال الجبلي { مُّرْشِداً }[17]
يهديه ويرشده إلى طريق الرشاد ومنهج السداد { وَ } من كمال لطف الله
إياهم ورأفته لو رأيتهم أيها الرائي مضاجعهم ومراقدهم
{ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً } متيقظين؛ لانفتاح عيونهم،
وورودهم أنفاسهم، وعدم نتنهم.

{ وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ } عنايةً منَّا إياهم وقت احتياجهم إلى التقلب
{ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ } كي لا تؤثر الأرض بأضلاعهم وجوانبهم
{ وَكَلْبُهُمْ } هو كلبُ مرُّوا عليه حين إوائهم إلى الغار معتزلين،
فلحقهم فطردوه، فأنطقه الله فقال:

أنا أحب أولياء الله وأحباءه دعوني أقتفِ أثركم فدعوه فتبعهم
كلب راعٍ مضوا عليه فأطعمهم وحكوا عليه حالهم، فتبعهم وتبعه كلبه،
(بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ } أيِّ:في وقراءة من قرأ: (وكالبهم) يؤيد هذا.
الباب أو العتبة أو الفناء .

{ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ } أيها الرائي ورأيت هيئة رقودهم في ذلك الغار . المهيب { لَوَلَّيْتَ}أَيّْ:استدبرت ورجعت قَهْقَرى هرباً وهولاً {مِنْهُمْ فِرَاراً } أَيّْ:من هيبتهم { وَلَمُلِئْتَ } وأملأ صدرك { مِنْهُمْ رُعْباً } (18)

خوفاً من رقودهم منفتحة العيون عظيمة الأجسام .

في غارٍ مُهيبٍ في خلال جبال عوالٍ بعيدةٍ عن العمران.

{ وَ } كما أقدرناهم وأنمناهم على هذا الوجه العجيب والطرز الغريب

{ كَذٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ } وأيقظناهم { لِيَتَسَآءَلُوا } ويتقاولوا { بَيْنَهُمْ } ويستطلعوا معاً مدة رقودهم ولبثهم في الغار؛ ليطَّلعوا على كمال قدرة الله، ووفور جوده ورحمته عليهم؛ ليزدادوا تعيناً واطمئناناً واعتماداً أو وثوقاً على كرم الله وفضله ولطفه، وبعدما قاموا من هجعتهم { قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ } راقدين في هذا الغار؟ { قَالُواْ } على سبيل الظن والتخمين؛ لأن النائم

لا اطلاع له على مدة نومه: { لَبِثْنَا يَوْماً } تاماً { أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } لأنهم دخلوا على الغار غدوة وانتبهوا في الظهيرة، فظنوا أنهم في يومهم أو الذي بعده.

ثم لما شاهدوا طول أظفارهم وأشعارهم { قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ } إذ هو قائمُ حاضرُ في كل حالٍ بلا تبدلٍ واختلالٍ، ونحن نائمون لا شعور لنا بمدة رقودنا ولا همَّ لنا بتعيينها بل أهم أمورنا أن نُطعم { فَٱبْعَثُواْ أَحَدَكُمْ } إلى المدينة مصحوباً { بِوَرِقِكُمْ }أَيّْ:بعينكم ونقدكم المضروبة المسكوكة.

والوَرق في اللغة: الفضة، سواء كانت مضروبة أم لا، والمراد هنا المضروبة.

(هَـٰذِهِ } إشارة إلى ما في يد القاتل من النقد { إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ } وهي: طرسوس التي فروا منها من دقيانوس { فَلْيَنْظُرْ } الذاهب المرسل، وليتأمل { أَيُّهَآ }أَىِّ:أي طبيخة طبّاخ.

{ أَزْكَىٰ }أَىِّ:أنظف وأظهر { طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ } حتى نطعم؛ إذ نحن جيعان { وَلْيَتَلَطَّفْ } الذاهب مع أهل السوق وليجامل معهم في المعاملة { وَ } ليخرج منها سريعاً حتى { لاَ يُشْعِرَنَّ } أَىِّ:الذاهب ولا يُطعن { بِكُمْ }أَىِّ:بحالكم ومكانكم { أَحَداً } [19] من أهل البلد.

{ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ } أو يقتلوكم بضرب الأحجار { أَوْ يُعِيدُوكُمْ } ويرجعوكم مرتدين { فِي مِلَّتِهِمْ } التي كنتم عليها قبل انكاشفكم بالتوحيد { وَلَن تُفْلِحُوۤاْ } أو تفوزوا بالفلاح والصلاح { إِذاً }أَىِّ:حين عودكم وارتدادكم إليها { أَبَداً } [الكهف: 20]أَىِّ:لا يرجى فلا حكم بعد ذلك أصلاً . (إِنَّهُمْ) بعد اطلاعهم وشعورهم بحالكم { إِن يَظْهَرُواْ } ويغلبوا .

ثم لما أرسلوا واحداً منهم إلى البلدة فدخل على السوق، ودار حوق الطباخين واختار طبيخةً زكيةً، وأخرج الدرهم؛ ليشتري الطعام، وكان عليه اسم دقيانوس، فاتهموه بأنه وجد كنزاً، فذهبوا به إلى الملك، وكان الملك نصرانياً موحّداً، فقصّ عليه القصة عن آخرها،

فقال بعض الحضّار: إن آباءنا قد أخبرونا أن فتيةً فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وجميع أهل المدينة مؤمنهم وكفارهم، فأبصروهم وتكلموا معهم، ثم قال الفتية نستودعك الله، ونعيذك من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فدفنهم الملك، وبنى عليهم مسجداً.

۞ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ
فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ
قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ
فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (22) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ
أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (24) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ
سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ
أَحَدًا (26) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن
دُونِهِ مُلْتَحَدًا (27)

(وَ) كما أنمناهم نوماً طويلاً شبيهاً بالموت، ورحمناهم بتقلبٍ من جانبٍ إلى جانبٍ وحفظناهم من حر الشمس وأنواع المؤذيات، وبعثناهم من نومهم بعث الموتى للحشر؛ ليزدادوا بصيرة وثقة على الله { كَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا } وأطعلنا { عَلَيْهِمْ } وعلى من شاهد حالهم، وشهد قصتهم من المؤمنين .

{ لِيَعْلَمُوٓاْ } ويتيقنوا { أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ } القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة لكل ما أراد وشاء { حَقٌّ } ثابتُ لائقُ له أن يُنجزه بلا خلفه

{ وَ } يتيقنوا خصوصاً { أَنَّ ٱلسَّاعَةَ } الموعودة التي وعدها الحق بألسنة جميع أنبيائه ورسله آتيهُ { لَا رَيْبَ فِيهَا } وارتفع نزاع الناس فيها، ببعث هؤلاء بعد ثلاثمائة وتسع سنين.

اذكر يا أكمل الرسل وقت { إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ } المتعلق بدينهم في المحشر والمعاد الجسماني؛ إذ القادر على حفظهم ورعايتهم في المدة المذكورة، وبعثِهم بعدها قادرُ على إحياء عموم الموتى من قبورهم وإعادة الروح إلى أجسامهم؛

إذ أمثال هذا سهلُ يسيرُ في جنب قدرة الله وإرادته، وبعدما بعثناهم من مراقدهم وأطلعنا الناس عليهم، فمضوا وتكلموا معهم، وحكوا ما حكوا، وأخبر القوم بمدة رقودهم، واستودعوا مع القوم ورجعوا إلى المراقد فماتوا وانقرضوا، فاختلف الناس في أمرهم، فقال المسلمون: هم منا لأنا موحدون، وقال المنكرون: بل هم منا لكونهم أولاد المنكرون.

وبالجملة:

{ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَاناً } قال المسلمون: نحن نبني عليهم مسجداً، وقال الآخرون نحن نبني عليهم كنسيةً، وكلا الفريقين ليسوا عالمين بكفرهم أوإيمنهم، بل { رَّبُّهُمْ } الذي رثاهم بأنواع التربية ورحمهم بأنواع الرحمة { أَعْلَمُ بِهِمْ } وبحالهم فأمرُهم موكولُ إلى الله مفوض إليه،

ثم لما تمادى النزاع بينهم وتطاول جدالهم {قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ } بالقدرة الحجة، وهم الموحدون المسلمون { لَنَتَّخِذَنَّ } ونبنين { عَلَيْهِم مَّسْجِداً } [21] نتوجه فيه لله، ونتبرك بهم ونجعله محل الحاجات وقضاء المناجاة، فاتخذوه وجعلوه مرجعاً يرجع إليه الأقاصي والأداني.

ثم لما اختلف الخائضون في قصتهم في عددهم، ذكر سبحانه أقوالهم أولاً، ثم بين ما هو أولى وأحق فقال:{ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ }

أَيَّ:مصيرهم أربعة { كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ }
أَيَّ:مصيرهم ستةً { كَلْبُهُمْ }

كلا القولين، الأول قول اليهود، والثاني قول النصارى صدر عنهم
{ رَجْماً } ورمياً { بِٱلْغَيْبِ } إذ لا مستند لهم من التواريخ وقول الرسل
{ وَيَقُولُونَ } هم { سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ }أَيَّ:مصيِّرهم ثمانيةً
{ كَلْبُهُمْ } والواو وإن كان مقحماً،

أفاد توكيد لصوق الصفة بالموصوف وشدة اتصاله به،
ليدل على صدقه ومطابقته، ومثله في القرآن كثير، منه قوله تعالى:
{ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ } [الحجر: 4] وغير ذلك،
وهي مثل الواو في قولهم: جاءني زيدُ ، ومعه ثوبُ .

هذا قول المؤمنين أخذوا من رسول الله، وهو من جبريل،
وجبرائيل من الله سبحانه، فإن شكوا فيه أيضاً ونسبوه إلى الرّمي
والتخمين { قُل } لهم يا أكمل الرسل: { رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم }
إذ لا يعزب عن علمه شيءُ من أحوالهم.

من أول أمرهم إلى أخره؛ لأن علمه بمعلوماته حضوريُ، لا يغيب عنه
أصلاً وهم { مَّا يَعْلَمُهُمْ } من أحوالهم { إِلاَّ قَلِيلٌ } بالأخبار والتواريخ،
وأكثرها غير مطابق للواقع، ولما كان قولهم
وعلمهم راجعاً إلى الرجم والرمي بلا مستند .

{ فَلاَ تُمَارِ } ولا تجادل يا أكمل الرسل { فِيهِمْ }أَيَّ:في حق الفتية
{ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِراً }أَيَّ:جدالاً خفيفاً مقتصراً على ما أوحينا إليك،
لا متعمقاً غليظاً بأن تُجهلهم وتُسفههم، وتضحك من قولهم،
وتنسبه إلى الخرافة الخرق.

(وَ } أيضاً { لاَ تَسْتَفْتِ } ولا تسأل { فِيهِمْ }أَيّ:في حق الفتية وأمرهم { مِّنْهُمْ }أَيّ:من أهل الكتاب { أَحَداً } [الكهف: 22] يعني: لا تستفتِ أحداً منهم عن قصتهم وشأنهم بعدما ظهر عليك أمرهم بالوحي؛

لأن استفتاءك بعد الوحي، إما سؤالُ تعنتٍ وامتحانٍ، فهو لا يليق بمرتبة الرسالة والنبوة، بعدي عن مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم اللازمة لمرتبة النبوة، وإما سؤال استعلام واسترشاد، فهم قاصرون عاجزون عنها، مع أنه لا معنى للسؤال بعد الوحي.

(وَ } لما أمره اليهود لقريش أن يسألوا رسول الله ﷺ سؤال تعنتٍ وامتحانٍ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فسألوا،

" فقال رسول الله ﷺ: " ائتُوني غَداً أُخْبِرُكُمْ عَنْهَا "

قاله بلا استنثاءٍ وتعليقٍ بمشيئتةٍ؛أَيّ:لم يقل: إن شاء الله، فانسد عليه باب الوحي بضعة عشر يوماً، فشق عليه ﷺ الأمر، وكذَّبته قريش وتحزّن حزناً شديداًن فنهاه سبحانته نهياً مؤكداً،

وأدّبه تأديباً بليغاً؛ لئلا يترك الاستثناء في الأمور أصلاً، فقال: { لاَ تَقُولَنَّ } يا أكمل الرسل ألبتة { لِشَاْىءٍ } عزمتَ عليه وأردتَ أن تفعله { إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ } الشيء { غَداً } [23] على سبيل البيت والمبالغة.

(إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ)أَيّ:إلا أن تذكرَ وتجيءَ بالاستثناء بعد عزمك بقولك، إن شاء الله، { وَٱذْكُر رَّبَّكَ } يا أكمل الرسل { إِذَا نَسِيتَ } ذكر الاستثناء والتعليق على مشيئة الله في خلال الأمور حين القصد والعزيمة

والقول بالإصدار، بعدما تذكرتَ نسيانَك تلافياً لما فُوّتَ وتداركاً لما تركتَ، ولو بعد حينٍ بل سنةٍ، وقل: إن شاء الله متذكراً الأمر الذي تركت التعليق فيه قضاءً لِما فات.

(وَقُلْ) بعدما كشفنا عليك جواب سؤالهم هذا شكراً له، وابتهاجاً عليه، وطلباً للمزيد منه سبحانه: { عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي } وأرجوا من فضله وجوده أن يرشدني ويدلني { لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً } [24]أَيّ:لأمرٍ هو أقربُ دلالةٍ من أمر أصحاب الكهف وقصتهم إلى الهداية والرشاد، وأوضحُ إيصالاً إلى مسلك الصواب والسداد؛ تأديباً لنبوتي وتشييداً لرسالتي،

وهو قد هداه وأرشده بأعظمَ من ذلك: كالإخبار عن بعض الغيوب، وقصص الأنبياء المتباعد عهدهم وزمانهم، وأمارات الساعة وأشراطها، وإنزال القرآن المشتمل على الرطب واليابس الحادثة في العالمين، الجارية في النشأتين.

(وَ) ما اختلف أهل الكتاب في عدد الفتية، اختلفوا أيضاً في مدة لبثهم في الغار راقدين نائمين قال بعضهم: { لَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ } بالسنة الشمسية على ما هو المشهور { وَ } بعضهم { ٱزْدَادُواْ } عليها. { تِسْعاً } [25] من تلك السنة أيضاً، وإن كان المراد بالسنة فيه الأولى شمسية والثانية قمرية، كان كلا القولين واحداً؛ لأن التفاوت بينهما في كل مائة عام سنة ثلاث سنين، فيكون الزايدة في ثلاثمائة: تسع سنين قمرية.

(قُلِ) يا أكمل الرسل بعدما لم يوجد شيءُ يوثَق به ويُعتمد عليه في تعيين مدة لبثهم في الغار سوى التخمين والحسبان { ٱللَّهُ } المطلعُ لجميع السرئر والخفايات.

{ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ }أَيِّ:بمدة لبثهم في كهفهم راقدين؛ إذ { لَهُ } سبحانه لا لغيره من مظاهره وأظلاله { غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَـٰتِ وَٱلأَرْضِ }أَيِّ:الاطلاع على المغيبات الواقعة في العلويات من غاية انكشافه وانجلائه له أن يقال: { أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ } كما يجري في مبصراتنا ومسموعاتنا؛ لاستغنائه وتنزهه سبحانه عن الالتفات والإصغاء،

بل المغيباتُ والمحسوساتُ كلُّها في حضوره وحضرة علمه على السواء بلا تفاوتٍ أصلاً .

ثم قال سبحانه: { مَا لَهُم }أَيِّ:لأهل السماوات والأرض { مِّن دُونِهِ }أَيِّ:دون الله { مِن وَلِيٍّ } يوليهم ويلي أمورهم؛ إذ هو مستقلُ بالوجود والتصرف في ملكه وملكوته بلا مظاهرة أحدٍ ومعاونته { وَلاَ يُشْرِكُ } بمقتضى تعززه وكبريائه وسطوته واستيلائه { فِي حُكْمِهِ } السابق في قضائه إجمالاً،

واللاحق في قَدْره تفصيلاً { أَحَداً } [الكهف: 26] من مظاهره ومصنوعاته، بل له الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والتخليق والترزيق، وجميعُ ما حدث من الحوادث الجارية في الآفاق كلُّها مستندةُ إليه سبحانه وتعالى أولاً وبالذات،

بلا تخلل الوسائل والوسائط العادية الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة بالنسبة إلى أولي الأحلام السخيفة، وذوي الحجب الكثيفة النافية لرؤية الحق انجلائه في المظاهر كلها.

وأما أرباب الوصول والشهود، وهم الذين ارتقوا حجبَ الخيالات وسُدلَ الأوهام والعادات، فلا يَرون في الوجود سواه، ولا إله عندهم إلا هو،

لذلك لم يسندوا شيئاً من الحوادث الكائنة بمقتضى التجليات والشئون الإلهية إلا له سبحانه؛ إذ ليس وراء الله عندهم مرمىً ومنتهىً.

(وَ } إذ كان مفاتيحُ المغيبات ومقاليدُ العلوم والإدراكات، وكذا جميعُ ما في العالم من المحسوسات والمشاهدات كلُّها مستندةُ إليه سبحانه، ناشئةُ من عنده { ٱتْلُ } يا أكمل الرسل على من تبعك من المؤمنين

{ مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ } على الوجه الذي أُنزل إليك بلا تبديلٍ وتحريفٍ؛ إذ { لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } ولا متصرف في كلامه سواه، ولا تسمع قول المشركين:{ ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ } [يونس: 15] إذ لا يسع لأحدٍ أن يبدله ويحرفه { وَ } إن هممتَ إلى تبديله وتحريفه من تلقاء نفسك { لَن تَجِدَ مِن دُونِهِ } سبحانه { مُلْتَحَداً } [27] ملجأً تلتجئ إليه نزول عذاب الله، وحلول أخذه وانتقامه على تبديلك وتغييرك كلامه،

ثم لما طلب صناديد قريش من رسول الله ﷺ إبعاد فقراء المؤمنين وطردهم عن مجلسه، مثل ابن آم مكتوم وأبي ذر وفقراء أصحابه؛ لرثاثة حالهم وشمول الفاقة عليهم حتى يصاحبوه ﷺ ويجالسوا معهم، فهمّ رسول الله ﷺ على إنجاح ما أرادوا واقترحوا، وأمر بالفقراء ألا يحضروا معهم في مجلسه، ردّ الله سبحانه على رسوله رداً بليغاً، ونهاه عنه نهياً شديداً.

۞وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) * وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَاءَ

فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن
يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا
(29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا
(30) أُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا
عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (31) ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ
جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا
(32) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ
وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (33) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34)

فقال سبحانه مؤدباً له مقرعاً: { وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ }أَيِّ:إن التمس قرشيُ من إبعاد الفقراء، وبالغوا في طردهم وذبّهم عن صحيتك، لا تُجبهم ولا تُنجح مطلوبهم، بل اصبر ووطّن نفسك المائلة إلى غنائهم وصفاء زيّهم ولباسهم { مَعَ } الفقراء { ٱلَّذِينَ } شأنهم أنهم

{ يَدْعُونَ } ويعيدون { رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ }أَيِّ:طرفي النهار وما بينهما { يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } ويتوجهون نحوه مخلصين بلا ميلٍ منهم إلى الهوى ومزخرفات الدنيا مع غاية فقرهم وفاقتهم { وَلاَ تَعْدُ }أَيِّ:لا تملِ ولا تُصرف { عَيْنَاكَ عَنْهُمْ } لرثاثة حالهم وخلقِ ثيابهم إلى الأغنياء وزّيهم البهيّ حال كونك { تُرِيدُ } وتقصد ،

{ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا } بالالتفات إليهم، والميل إلى مصاحبتهم ومجالستهم، والركون إلى جاههم وثروتهم { وَلاَ تُطِعْ } ولا تنفق معهم في طرد الفقراء بمجرد ميلك إيمانك أولئك الأغنياء البعداء عن روح الله ،

ولا تلتفت التفاتَ متحننٍ متشوقٍ إلى
{ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ } وختمنا عليه بالإعراض

{ عَن ذِكْرِنَا } ختماً لا يرتفع عنه أصلاً { وَ } لذا صار من العتو والعناد إلى أن { ٱتَّبَعَ هَوَاهُ } واتخذه إلهاً، واجتنب عن مولاه ونبذه وراءه { وَكَانَ أَمْرُهُ } في الاتباع والاتخاذ { فُرُطاً } [الكهف: 28] مَيلاً وتقدماً نحو الباطل، وإعراضاً عن الحق ونبذاً له وراءه ظهرياً .

(وَقُلِ) على سبيل المثال الإرشاد والتبليغ بلا مراعاةٍ ومداهنةٍ
{ ٱلْحَقُّ } الصريحُ الصحيحُ الثابتُ ما نزل ونشأ
{ مِن رَّبِّكُمْ } الذي أنشأكم وأظهركم

من كتم العدم وأصلح حالَكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وبلّغْ ما أوحي إليك بلا تبديلٍ وتغييرٍ؛ إذ ما عليك إلا البلاغ والتبليغ { فَمَن شَآءَ } منهم الفوز والفلاح { فَلْيُؤْمِن } بالله وكتب ورسله على مقتضى ما بلغْتَ { وَمَن شَآءَ } منهم الوبالَ والنكالَ في الدارين { فَلْيَكْفُرْ } فاعلم أنه سبحانه لا يبالي بكفرهم وإيانهم؛ إذ هو منزهُ عن إيمان عباده وكفرهم.

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والتنبيه: { إِنَّا } من مقام علدنا وقهرنا من أعرض عنا من عبادنا وانصرف عن مقتضى أوامرنا ونواهينا { أَعْتَدْنَا } وهيأنا سببا { لِلظَّالِمِينَ } الخارجين عن مقتضيات أحكامنا { نَاراً } ذاتتَ التهابٍ واشتعالٍ إلى حيث { أَحَاطَ }أَيّْ:احتوى واشتمل { بِهِمْ سُرَادِقُهَا } أَيّْ:لهبُها التي هي كالفسطاط في الإحاطة والشمول، والفسطاطُ: المتخذُ من الشعر

{ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ } من شدة العطش ونهاية حرقة الكبد والزفرة { يُغَاثُواْ } ويُجابوا { بِمَآءٍ } في اللون { كَٱلْمُهْلِ } وهو الحديدُ المذابُ، وفي الحرارة إلى حيث { يَشْوِي ٱلْوجُوهَ } ويحرقها وقتَ تقريبه إلى الفم للشرب.

وبالجملة:

{ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ } شرابُ المهل { وَسَآءَتْ } جهنم وأوديتها المملوءة بنيران الحرمان والخذلان { مُرْتَفَقاً } [29] منزلاً ومسكناً، تسكنون فيها أبداً مخلداً.

ثم اتبع سبحانه الوعيد بالوعد على مقتضى سنته المستمرة، فقال: { إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ } بوحدة ذاتنا وكمال أوصافنا وأسمائنا، وبإرسالنا الرسل، وإنزالنا الكتب المبينة الموضحة لأحكامنا الصادرة منا على مقتضى الأزمان والأدوار { وَ } مع الإيمان والإذعان .

{ عَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ } المأمورةِ لهم في الكتب وألسنة الرسل، واجتنبوا عما نهيناهم عنها، فجزاؤهم علينا نجازيهم ونضاعف لهم بأضعاف ما يستحقون بأعمالهم وإخلاصهم فيها.

{ إِنَّا } من مقام فضلنا وجودنا { لاَ نُضِيعُ } ونهمل { أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً } [30] وأخلص نيةً، وأتم قصداً وأكلم عزيمةً.

(أُوْلَـٰئِكَ) السعداء المحسنون المخلصون { لَهُمْ } في النشأة الأخرى { جَنَّاتُ عَدْنٍ }أَيِّ:متنزهاتُ إقامةٍ وخلودٍ من مراتب العلم والعين والحق، ومع ذلك { تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلأَنْهَارُ }أَيِّ:أنهار المعارف والحقائق، متجددةً بتجددات التجليات الإلهية والنَّفَسات الرحمانية المترشحة من رشاشات بحر الذات الأزلية الأبدية، ومع ذلك { يُحَلَّوْنَ } ويزينون { فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ } وخلاخل متخذةٍ { مِن ذَهَبٍ }

جزاء ما هذَّبوا أخلاقهم وجوارحه بمقتضى الأوامر الإلهية في النشأة الأولى { وَيَلْبَسُونَ } فيها { ثِيَاباً خُضْراً } مصنوعةً { مِّن سُنْدُسٍ } وهو ما رقَّ من الديباج { وَإِسْتَبْرَقٍ } هو ما غلظ منه جزاء ما يتصفون في النشأة الأولى بزي التقوى ولباس الصلاح

ومن كمال تنعمهم وترفههم يكونون { مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلأَرَآئِكِ } والسررِ، متمكنين عليها جزاء ما حملوا من المتاعب والمشاق في مواظبة الطاعات وملازمة العبادات،

وبالجملة:

{ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ } والجزاء جزاءُ أهل الجنة وثوابهم { وَحَسُنَتْ } المتنزهات الثلاثة { مُرْتَفَقاً } [الكهف: 31] يرتفقون وينتفعون فيها أهل الكشف والشهود، بما لا عينُ رأت ولا أذنُ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر.

ثم أمر سبحانه حبيبه ﷺ بضرب المثل لتوضيح حال المؤمن والكافر، ومآل أمرهما فقال: { وَٱضْرِبْ لَهُمْ } يا أكمل الرسل { مَّثَلاً } بيّناً موضِّحاً كان { رَّجُلَيْنِ } من بني إسرائيل هما أخوان؛ أحدهما مؤمنُ موحدُ، والآخر كافرُ مشرك مات أبوهما، وورثا منه أموالاً عظاماً فاقتسما، فصرف المؤمن ماله في سبيل الله وأنفق للفقراء واليتامى وأبناء السبيل، واشترى الكافر مكاسبَ ومزارع وكثر ماله إلى أن { جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا }

أَيِّ: للكافر ابتلاءً له واختباراً { جَنَّتَيْنِ } بستانين { مِنْ أَعْنَابٍ } وكرومٍ { وَحَفَفْنَاهُمَا }أَيِّ:أ؛ حوطنا كلاً منهما { بِنَخْلٍ } لتزيد حسناً وبهاءً { وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا }أَيِّ:بين الجنتين { زَرْعاً } [32] مزرعاً ومحرثاً للحبوب والأقوات من الحنطة والشعير وغيرهما.

(كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ } كملتا إلى أن { آتَتْ } وأثمرت كل منهما { أُكُلَهَا } ثمرتها كاملةً وافرةً في كل سنةٍ { وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً }أَيِّ:لم تنقص ثمرتها وحاصلهما من كل منهما شيئاً من النقصان كما هو المعهود في سائر البساتين، فإن ثمرها يتوفر في عامٍ وينقص في أخرى { وَ } مع ذلك { فَجَّرْنَا } وأجرينا { خِلاَلَهُمَا }أَيِّ:أوساط الجنتين { نَهَراً } [33] سقيهما

(وَ } مع تينك الجنتين المذكورتين { كَانَ لَهُ ثَمَرٌ }أَيِّ:اموالُ عظامُ وأمتعةُ كثيرةُ من أنواع الأجناس والنقود والجواهر والعبيد وغير ذلك، { فَقَالَ } الآخر الكافر يوماً على سبيل البطر والمباهاة { لِصَاحِبِهِ }أَيِّ:للأخ المؤمن .

{ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ } ويخاطبه بعض الأموال والزخارف عليه، ويشنّع عليه، ويعيره ضمناً، ويقرّعه تقريعاً خفياً، إلى أن بطراً: { أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً } وبالأموال تقتضي الأماني، وتنال اللذات والشهوات { وَأَعَزُّ نَفَراً } [34] أبناءً وعشائر وأحشاماً وخدمةً يظاهرن ويعاونون عليّ لدى الحاجة، ويجالسون ويصاحبون معي في الحضر والسفر.

۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (35)
وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (36)
قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ
ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَّـٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38)
وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ
مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا
حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن

تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا
وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُن
لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ
الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (44) وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ
أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (45)

(وَ } من شدة بطره وخيلانه: { دَخَلَ } يوماً { جَنَّتَهُ } التي ذكر وصفها { وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } بعرضها على عذاب الله وأنواع عقابه بكفره بالله، وبطره بحطام الدنيا، وإعجابه على نفسه اتكالاً على ثروته وجاهه وكثرة أعوانه وأنصاره { قَالَ } من طول أمله وحرصه وشدة غروره وغفلته:

{ مَآ أَظُنُّ } بل ما أشك وأوهم { أَن تَبِيدَ }أَيِّ:تنهدم وتنعدم { هَـٰذِهِ } الجنة { أَبَداً } [الكهف: 35] بل هي على هذا القرار والنضارة دائماً.

(وَ) أيضاً { مَآ أَظُنُّ } وأعتقد { ٱلسَّاعَةَ } الموعودة التي أخبر بها أصحاب الدعاوي من الأنبياء والرسل { قَائِمَةً } آتيةٌ البتة بلا تردد وشك حتى تنهدم وتنعدم هذه بانعدام العالم وانقراضها
{ وَلَئِن رُّدِدتُّ } هبني أن فرضتُ وقدّرتُ قيام الساعة
وانقضاء النشأة الدنياوية على ما زعموا وبُعثتُ من قبري على الوجه الذي ادعو ورُددتُ { إِلَىٰ رَبِّي } للحساب والجزاء وعرض الأعمال وتنقيدها { لأَجِدَنَّ } ألبتة جنةً في العقبى { خَيْراً مِّنْهَا }أَيِّ:من هذه الدنياوية فآخذُها { مُنْقَلَباً } [36]أَيِّ:مرجعاً ومنزلاً.

كما أخذتُ هذه في الدنيا، وإنما يقول ذلك على سبيل الاستهزاء والاستخفاف، يعني: إني حقيق حريٌ بتلك المرتبة في الدنيا والآخرة، إن فُرض وجودها، فأنا حري بذلك فيها أيضاً ،.

ثم لما تمادى في المباهاة والمفاخرة، وتطاول كلامه في الغفلة والغرور والإنكار على الله وكمال قدرته وقوته، وسرعة نفوذ قضائه وحكمه المبرم متى تعلق إرادته { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ } المؤمن،

{ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ } على سبيل العظة والتذكير وأنواع التسفيه والتعيير: { أَكَفَرْتَ } وأنكرتَ أيها المفسد الطاغي { بِٱلَّذِي خَلَقَكَ }أيّ:قدَّر أولاً مادتك { مِن تُرَابٍ } خسيسٍ مزدولٍ إلى أن صرتَ بكثرة التبدلات والتغييرات نطفةٌ مهينةٌ { ثُمَّ } قدّرها ثانياً،

{ مِن نُّطْفَةٍ } دنيئةٍ يستحقرها بل يستخبثها جميع الطباع { ثُمَّ سَوَّاكَ } منها وعدل لك شخصاً سوياً سالماً وربَّاك بأنواع اللطف والكرم إلى أن صرتَ{ رَجُلاً } [37] رشيداً عاقلاً بالغاً كافلاً للأمور والوقائع، كافياً لإحداث الغرائب والبدائع، وافياً في جميع المضارّ والمنافع.

{ لَّـٰكِنَّاْ }أيّ:لكن أنا لا أنكر مثلك ربي الذي أظهرني، وقدّر ، ثم عدَّلني وسواني كاملاً في العقل الرشد؛ لأعرف ذاته فأعبده، وأتوجه نحوه، وأتضرع إليه، وأصدق رسله وكتبه وجميع ما وجب الاعتقاد من الأمور المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى،.

فكيف أنكره وأكفر بنعمه وأنسى حقوق لطفه وكرمه؛ إذ { هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي } وربُّ جميع من في حيطة الوجود من الأظلال والعكوس، وهو المستقل في الوجود والألوهية والربوبية، وهو المتوحد المتفرد بالقيومية والديمومية ،

{ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي } الذي ربَّاني بأنواع اللطف والكرم { أَحَداً } [38] سواه؛ إذ لا شيء في الوجود إلا هو.

(وَلَوْلآ)أَيِّ:هلا وقت { إِذْ دَخَلْتَ } أيها المدبر العاقل { جَنَّتَكَ } التي افتخرت بها { قُلْتَ } بدل قولك: { مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً } [35]
{ مَا شَآءَ ٱللَّهُ }أَيِّ:ما شاء وأراد دوامها تتأبد وما لم يشأ لم تتأبد؛
إذ { لاَ قُوَّةَ } ولا قدرة للتأبيد والتخريب { إِلاَّ بِٱللَّهِ } أصالةً وحقيقةً،

وأنت أيها الكافر المسرف المنكر { إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً } [39] فعيرتني وعرضت عليّ أولادَك وزخارفَك بطراً وبوحاً، مع أني أكثر منك إيماناً وعرفاناً وثقةً على الله واتكالاً.

(فعسَىٰ رَبِّي) وأرجو من كمال فضله وجوده { أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً }أَيِّ:أزيد حسناً وبهاءً وأكثرَ بركةً ودخلاً { مِّن جَنَّتِكَ } التي تتفوق وتتفضل بها ليّ؛ إذ هو القادر على كل ما أراد وشاء،

{ وَيُرْسِلَ } بغتةً { عَلَيْهَا }أَيِّ:على جنتك { حُسْبَاناً }أَيِّ:صواعقَ نازلةً ليلاً { مِّنَ ٱلسَّمَآءِ } فحرَّقتُها وخرَّبتُها واستأصلتها { فَتُصْبِحَ } أنت وترى { صَعِيداً } تراباً { زَلَقاً } [40] ملساء
لا تثبت فيها قدمُ ولا تنبت فيها نباتاً.

(أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا) الجاري في خلالها { غَوْراً } غائراً عميقاً؛
بحيث لا يمكن سقيها منه أصلاً لغاية غوره وعمقه
{ فَلَن تَسْتَطِيعَ } وتقدر { لَهُ طَلَباً } [41] بالكفر والحيل وأنواع التدابير.

فأعطى سبحانه المؤمن ما أمِله وأراده تفضلاً عليه وامتناناً له: { وَ } أرسل على بستان الكافر صواعقَ نازلةً من السماء كثيرة إلى حيث{أُحِيطَ بِثَمَرِهِ } وعمّت الإهلاك والاستئصال جميع ما فيها من الثمار،

فلم يبقَ الانتفاع بها أصلاً، وذهب ماؤها وبهاؤها واضحملت نضارتها وصفاؤها { فَأَصْبَحَ } الكافر { يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ } ظهراً لبطن تلهفاً وتأسفاً { عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا }أَيّ:في تعميرها وإنشائها من الأموال والعظام.

{ وَهِيَ }أَيّ:لجنة { خَاوِيَةٌ } ساقطةٌ { عَلَىٰ عُرُوشِهَا }أَيّ:عروشها على الأرض والكروم عليها محرقةٌ جميعها { وَيَقُولُ } حينئذ بعدما أفاق عن سكر الغرور والغفلة، وتفطن على منشأ الصدمة والصولة الإلهية نادماً متحسراً: { يٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً } [42] تعنتاً واستكباراً حتى لا يلحق عليّ ما لحقني من الوبال والنكال.

(وَلَمْ تَكُن لَّهُ) حينئذ { فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ } على مقتضى مباهاته ومفاخرته بالأعوان والأنصار من بأس الله وأخذِه بل لا ناصرَ له { مِن دُونِ ٱللَّهِ } أَيّ:استنصر منه، واستغفر عما صدر عنه من الجراءة والجرائم فقد نصرَه وعفا عنه وإن عظمت زلته.

{ وَمَا كَانَ } أيضاً بنفسه على مقتضى استبداده وثروته { مُنْتَصِراً } [43] مخلّصاً مُنْجِياً نفسه عن امثال عن أمثال هذا النكال بل: { هُنَالِكَ } وفي تلك الحالة وأمثال تلك الواقعة { ٱلْوَلاَيَةُ }أَيّ:النصر والاستيلاء، والغلبة والاستعلاء، والعظمة والكبرياء، والتعزز والاستغناء .

{ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ } الثابت القيوم المطلق، الحقيق بالحقية والقيومية، الجدير بالبسط والديمومية، ولذلك { هُوَ } سبحانه بذاته وبمقتضى ألوهيته

وربوبيته { خَيْرٌ ثَوَاباً } في النشأة الأخرى لأوليائه، وأفضلُ عطاءً لأحبائه وأُمنائه { وَخَيْرٌ عُقْباً } [44] لانتقام أعدائه انتصاراً لأوليائه.

(وَٱضْرِبْ لَهُم)أَيِّ:اذكر يا أكمل الرسل للمائلين إلى الدنيا ومزخرفاتها ومستلذاتها الفانية الغير قارة، المستتبعة لأنواع الآثام والعصيان، المستلزمة لغضب الله وسخطه ومثّل لهم { مَّثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا }

وانقضائها وفنائها سريعاً { كَمَآءٍ }أَيِّ:مثله مثل ماء { أَنْزَلْنَاهُ مِنَ } جانب { ٱلسَّمَاءِ } إظهاراً لكمال قدرتنا وعجائب صنعتنا وبدائع حكمتنا.

{ فَٱخْتَلَطَ بِهِ }أَيِّ:تكاثف وغلظ بسببه { نَبَاتُ ٱلأَرْضِ } وصار في كمال الطراوة والنضارة والحسن والبهاء إلى حيث يعجب منها أبصار أولي الألباب والاعتبار،

ثم يبس من حر الشمس وبرد الهواء { فَأَصْبَحَ هَشِيماً } مهشوماً متفرق الأوراق متفتتَ الأجزاء إلى حيث { تَذْرُوهُ }أَيِّ:تثيره وتطيره { ٱلرِّيَاحُ } كيف يشاء .

{ وَكَانَ ٱللَّهُ } القادر المقتدر بالقدرة الكاملة التامة { عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ } من قدراته ومراداته { مُّقْتَدِراً } [الكهف: 43] كاملاً؛ بحيث لا تنتهي قدرته لدى المراد، بل له التصرف فيه على ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله.

۞الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَاۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (46) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ

فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ
وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ
مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) ۞ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (51)
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (52) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا
عَنْهَا مَصْرِفًا (53)

ومتى سمعتَ وعلمتَ حال حياة الدنيا ومآل أمرها وعاقبتها، وانكشفتَ بعدم ثباتها وقرارها فمعظم ما يتفرع عليها: { ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ }

إذ هما { زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا } الفانية عارضان عليها،
ومتى لم يكن للمعروض دوامُ وبقاءُ، فللعارض بالطريق الأولى { وَٱلْبَاقِيَاتُ } التي تبقى معك في أولادك وأخراك { ٱلصَّالِحَاتُ } المقربةُ إلى الله المقبولةُ عنده، المترتبةُ عليها النجاةُ من العذاب والنيلُ إلى الفوز بالفلاح { خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً }

أَىِّ:أجراً وجزاءٌ حسناً من اللذات الروحانية المودعة لأرباب القبول { وَخَيْرٌ أَمَلاً } [الكهف: 46]أىِّ:عاقبةً ومآلاً؛ إذ يُنال بها المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات المودعة لأرباب العناية وأصحاب القلوب من الراجين المؤملين شرف لقاء الله والفوز بمطالعة وجهه الكريم .

(وَ) أذكر يا أكمل الرسل للناسين عهودَ الله ومواثيقَه { يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ } وتحركها بالقدرة الكاملة والسطوة الهائلة، ونفتت أجزاءها، وتحلل تراكيبها، ونشتتها إلى أن صارت دكّاً .

{ وَتَرَى } أيها الرائي { ٱلأَرْضَ } المملوءة بالجبال الرواسي الحاجبة عما وراءها { بَارِزَةً } ظاهرةً ملساءَ مسوى لا ارتفاعَ لبعض أجزائها على بعضٍ، مظهرةً لما فيها من الأجساد المدفونة

{ وَ } بعد ظهورهم منها، وبروز الأجداث والأجساد عليها { حَشَرْنَاهُمْ } وجمعناهم بأجمعهم حفاةً عراةً إلى الموقف والموعد المعدّ للعرض والجزاء{ فَلَمْ نُغَادِرْ } ولم نترك { مِنْهُمْ أَحَداً }[47] لا نسوقه إلى المحشر.

(وَ) بعدما جمعوا واجتمعوا في المحشر جميعاً { عُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ } يا أكمل الرسل عرضَ العسكر على السلطان الصوري { صَفَّاً } صافين مصفَّفين على الاستواء؛ بحيث لا يحجب أحدٌ أحداً،

بل كل واحد في مرأى منه سبحانه بلا سترةٍ وحجابٍ،
ثم يقال لهم من قِبل الحق على سبيل الاستيلاء والسطوة، وإظهار الهيبة والسلطنة القاهرة الغالبة.

{ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا } اليوم حفاةً عراةً { كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } كذلك؛ أَيّْ:في بدء وجودكم وظهوركم { بَلْ } كنتم { زَعَمْتُمْ } وظننتم فيما مضى من شدة بطركم وغفلتكم{أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً }[48]
أَيّْ:ألن نقدر على إنجاز ما وعدناكم بألسنة رسلنا من البعث والحشر والعرض والجزاء، بل كذَّبتم الرسلَ وأنكرتم الوعدَ والموعودَ جميعاً، فالآن ظهر الحق الذي كنتم تمترون فيه.

(وَ) بعدما عُرضوا صافين على الوجه المذكور { وُضِعَ ٱلْكِتَابُ } المشتمل على تفاصيل أعمالهم وجميع أحوالهم وأطوارهم، من بدء فطرتهم إلى انقراضهم من النشأة الاولى والمعدَّة لكسب الزاد للنشأة الأخرى بين يدي الله على رءوس الملأ.

{ فَتَرَى } أيها الرائي { ٱلْمُجْرِمِينَ } حينئذ { مُشْفِقِينَ } خائفين مرعوبين { مِمَّا فِيهِ }أَيِّ:في الكتاب قبل القراءة عليهم { وَ } بعدما قُرئ عليهم، وسمعوا جميعَ ما صدر عنهم كائنةً مكتوبةً فيه على التفصيل بلا فوت شيءٍ { وَيَقُولُونَ } متحسرين متمنين الموت، مناجين في نفوسهم، منادين: { يٰوَيْلَتَنَا } وهلكتنا أدركنا فهذا وقت حلولك ونزولك.

{ مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ } العجيب الشأن الجامع لجميع فضائحنا وقبائحنا؛ بحيث { لاَ يُغَادِرُ } ولا يترك فضيحة { صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا } فصَّلها وعدَّدها بلا فوتِ خصلةٍ منها.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: القهقهة

(وَ) بالجملة:

{ وَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ } من الخير والشر والذميمة والحميدة{ حَاضِراً } ثابتاً مكتوباً بلا نقصانٍ منها ولا زيادةٍ عليها، وكيف لا يكون كذلك؛ إذ { وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ } يا أكمل الرسل { أَحَداً } [49] من عباده لا بالزيادة ولا بالنقصان ولو قدر نقير.

ثم لما كان منشأ جميع الشرور والغرور، وأنواع الفتن والغفلات، وأصناف الشكوك والكفر والضلالات إبليسَ عليه اللعنة كرر سبحانه

قصة استكباره واستنكاره مراراً تذكيراً للمتعظين وتنبيهاً على الغافلين المغرورين؛

ليكونوا على ذُكْرٍ منه بضمٍ فسكون،أَيِّ:تذكُّرٍ وتفكرٍ من غوائله وتسويلاته؛ ليتمكن لهم الحذرُ عن وساوس أعوانه وأنصاره

التي هي جنود الأوهام والخيالات الباطلة والأماني الكاذبة الناشئة من صولة الأمَارة المستولية على القوى الروحانية.

فقال: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ }أَيِّ:اذكر لهم وقت قولنا للملائكة المعترضين لنا على اصطفائنا آدم للخلافة والنيابة بعد إفحامنا، والزامنا إياهم بما ألزمناهم { ٱسْجُدُواْ }أَيِّ:تواضعوا وتذللوا على وجه الخضوع والانكسار .

{ لأَدَمَ } النائبِ المُستَخلف عنا بعدما ظهر عنكم، وعليكم فضلُه وشرفُه واستحقاقُه لأمر الخلافة { فَسَجَدُوٓاْ } بعدما سمعوا متذللين امتثالاً للأمر الوجوبي.

{ إِلاَّ إِبْلِيسَ } منهم أبى، ولم يسجد له معللاً بأنواع العلل والجدالات الباطلة الناشئة من خباثة فطرته على ماسمعت غير مرةٍ.

وإنما امتنع؛ لأنه { كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ } في أصل خِلقته، فلحق بالملائكة لحكمةٍ ومصلحةٍ { فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } على مقتضى خِلقته الأصلية { أَفَتَتَّخِذُونَهُ } أيها المغرورون بتغريره، والمأملون إلى تلبيسه وتزويره بعدما صدرتْ عنه هذه العداوة الظاهرة .

{ وَذُرِّيَّتَهُ } المختلطة معكم المرتكزة في نفوسكم، وقواكم اللاتي هي أعدى أعدائكم { أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي } بحيث نفوضون أموركم إليها؛ ليوالوها لكم { وَهُمْ } أصلهم وفرعهم { لَكُمْ عَدُوٌّ } قديمُ مستمرُ .

{ بِئْسَ } الشيطان وذريته، وولايتهما { لِلظَّالِمِينَ } الخارجين عن مقتضى أوامرنا ونواهينا { بَدَلاً } [50] عنَّا وعن ولايتنا إياهم.

وعن يحيى بن معاذ رضي الله عنه: لا يكون من أولياء الله، ولا يبلغ مقام الولاية مَنْ نَظَرَ إلى شيءٍ دونه واعتمد على سواه، ولم يميز بين معاديه ومواليه، ولم يعلم حال إقباله من حال إدباره .انتهى.

فكيف تتخذون أيها الحمقى المسرفون إبليسَ وذريتَه أولياءَ من دوني مع أني {مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ} وأحضرتهم إبليسَ وجنودَه{خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أَيّْ:وقت خلقهما وإيجادهام؛ ليُعاونوا ويظاهروا عليّ حتى تتخذونهم أولياء غيري، شركاءَ معي في استحقاق العبادة { وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ } أيضاً؛ أَيّْ:لا أحضرُ بعضهم عند خلق بعضٍ منهم.

(وَ } بالجملة:

أنا أستقل بالخلق والإيجاد بل في الوجود أيضاً؛ لذلك { مَا كُنتُ } في خلق الأشياء وإيجادها محتاجاً إلى المعين والظهير أصلاً، فكيف أكون { مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ } الضالين عن ساحة عزِّ الحضور إليها.

{ عَضُداً } [51] أعواناً وأنصاراً أعتَضِدُ وأنتصرُ بهم حتى تشاركونهم بي في استحقاق العبادة والإطاعة والانقياد بل ترجّحونهم عليّ بالولاية والمحبة.

(وَ } اذكر يا أكمل الرسل { يَوْمَ يَقُولُ } الله سبحانه على سبيل التعيير والتقريع للكفار والمشركين: { نَادُواْ } أيها المنهمكون في الغيّ والضلال { شُرَكَآئِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ } أنهم شفعاؤكم اليوم، وعبدتم لهم مثل عبادتي بل أحسن منها حتى ينقذوكم من عذابي، ويشفعوا لكم عندي .

{ فَدَعَوۡهُمۡ } صارخين مستغيثين { فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ } ولم يجيبوا استغاثتهم؛ لأنهم حينئذٍ مشغولون بحالهم، مأخوذون بوبالهم ونكالهم، لذلك لا يلتفتون إليهم.

{ وَ } مع ذلك { جَعَلۡنَا بَيۡنَهُم }أَيّ:بين العابدين والمعبودين { مَّوۡبِقاً } [52] مهلكاً عظيماً وودياً غائراً عميقاً من أودية جهنم مملوءة بالنار؛ بحيث لا يمكن تواصلهم أصلاً.

(وَرَأَى ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ) بعدما عُرضوا أو حُوسبوا، وسِيقوا نحو جهنم؛ ليُعذبوا فيها كلٌ على مقتضى ما كسبَ من المعاصي والآثام الموجبة للأخذ والانتقام { فَظَنُّوٓاْ } بل تيقنوا .

{ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا } داخلوها وملاصقوها ألبتة { وَ } وكيف لا يجزمون بالدخول واللصوق أنهم { لَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفاً } [53]أَيّ:منصرفاً ومعدِلاً سواها، ينصرفون إليه مع أن الموكلين من الملائكة يسوقونهم، ويدخلونهم فيها زجراً وقهراً.

۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (54) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (56) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ

بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ
لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (59) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ
حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا
نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61)

(وَ) كيف يجدون مصرفاً سواها، ومن أين يتأتى لهم الانصراف اليوم؛ إذْ هم فوّتوا على أنفسهم المصرف، وسبب الانصراف في النشأة الأولى مع أنا { لَقَدْ صَرَّفْنَا } وكررنا { فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ } المرشد إلى الهداية، الصارفِ عن الضلالة والغواية { لِلنَّاسِ } المنهمكين في الغفلة والنسيان.

{ مِن كُلِّ مَثَلٍ }أَيِّ:من كل شيءٍ مثلاً موضحاً ينبههم إلى الهدى، ويجنبهم عن الغفلة والهوى، فلم ينتبهوا ولم يتفطنوا بل قابلوا الباطلَ بالحق وجادلوا { وَكَانَ ٱلإِنْسَانُ } المجبول على النسيان والكفران.

{ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً } [54]أَيِّ:جداله ومكابرته أكثر من جدال سائر المخلوقات، وأن رشده وإيمانه أكثر أيضً منها أيضاً.

***

ثم قال سبحانه: { وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ } عن الإيمان وصَرَفهُم { أَن يُؤْمِنُوۤاْ } أَيِّ:يوقنوا ويصدّقوا { إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ }أَيِّ:النبيُ الهادي المؤيدُ بالكتاب المعجز المرشد { وَ } صرفهم أيضاً أن { يَسْتَغْفِرُواْ } ويتوبوا عن ظهر القلب عقيبَ كل معصيةٍ، نادمين عنها بلا إصرارٍ وإدمان؛ ليسقط عنهم الأخذ والانتقام.

{ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ } ويحيط بهم { سُنَّةُ ٱلأَوَّلِينَ } من الإهلاك والاستئصال بغتةً { أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلاً } [الكهف: 55]أَيِّ:أنواعاً وأصنافاً

منه، مترادفةً متواليةً كالكسف والخسف والمسخ وغير ذلك، فيهلكهم على سبيل التدريـج.

(وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ) بأنواع الفتوحات والفيوضات الروحانية، والكشوفات والشهودات اللدنية النورانية { وَمُنذِرِينَ } عن أنواع العذاب والعقاب والنكبات، والبليات المورثة لأنواع الخذلان، الخسران والطرد والحرمان والخلود في النيران إصلاحاً لأحوال الأنام، وإرشاداً لهم إلى دار السلام، وحثاً لهم إلى سلوك طريق التوحيد المنجي عن ظلمات الشكوك والأوهام.

***

(وَ) مع ذلك { يُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ } بالله ورسله، ويخاصمون معهم متشبثين { بِٱلْبَـٰطِلِ } الزائغ الزائل { لِيُدْحِضُواْ } أن ينزعوا { بِهِ ٱلْحَقَّ } ويزلقوا الثابت المستقر المطابق للواقع عن مقره { وَ } لذلك

{ ٱتَّخَذُوۤاْ ءَايَـٰتِي } الدالة على عظمة ذاتي، ووفور حكمتي، وكمال قدرتي وقوتي { وَمَآ أُنْذِرُواْ }أَيِّ:ما اشتملت عليه من الإنذارات والتخويفات وأنواع الوعيدات { هُزُواً } [الكهف: 56]أَيِّ:موضع استهزاءٍ وسخريةٍ، ومحلَ هزلٍ وضحكةٍ؛ لذلك نسبوها إلى ما لا يليق بشأنه من السحر الشعر والأساطير الكاذبة، وغيرها من أنواع الهذيانات والأباطيل الزائغة افتراءً ومراءً.

(وَمَنْ أَظْلَمُ) على الله وأسوأ أرباباً لنسبته إليه سبحانه { مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَـٰتِ رَبِّهِ } ليتعظ بها ويصلح بسببها { فَأَعْرَضَ عَنْهَا } وانصرف من سماعها، فكيف عن قبولها امتثالها استنكاراً واستكباراً.

{ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ }أَيِّ:كسبت واقترفت { يَدَاهُ } من الجرائم والآثام وأنواع الكفر والشرك والطغيان، ولو اتعظوا به وعملوا بمقتضاها لذهبت سيئاتهم وتضاعفت حسناتهم، وكيف يتذكرون بها ولا يمكنهم التذكر.

{ إِنَّا } بمقتضى قهرنا وسُخْطِنا عليهم { جَعَلْنَا }أَيِّ:طبعنا وختمنا { عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ } التي هي وعاء التذّكر والقبول { أَكِنَّةً } حُجباً غليظةٌ كثيفةً مانعةً { أَن يَفْقَهُوهُ }أَيِّ:القرآن ويفهموا معانية ومقاصده،

فكيف بغوامض رُموزه وإشاراته { وَ } ختمنا أيضاً { فِيۤ ءَاذَانِهِمْ وَقْراً } صمماً بمنعهم عن الاستماع والإصغاء إليه، فيكف عن فهمه والعمل به.

(وَ) من غلظ غشاوتهم، وشدة قساوتهم وصممهم
{ إِن تَدْعُهُمْ } يا أكمل الرسل { إِلَى ٱلْهُدَىٰ } وترشدهم إلى الفلاح والفوز بالنجاح { فَلَنْ يَهْتَدُوۤاْ } ويفوزوا { إِذاً }أَيِّ:حين ختم قلوبهم ووقر صماخهم_الأذن_ { أَبَداً } [57] في أي حالٍ من الأحوال؛
إذ لا يُعارض فعلنا ولا يُبدَّل قولنا إلا بأمرنا وتوفيقنا.

وتكذيبهم الرسل والكتب، وإصرارُهم على الكفر والشرك، وإن كان يستدعي نزول العذاب عليهم فجأةً لاستخفافهم بنزوله إلا أنه يمهلهم { وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ } المبالغ في ستر ذنوب عباده وعيوبهم؛لأنه{ ذُو ٱلرَّحْمَةِ } الوسعة والحكمة الكاملة لعلهم يتنبهوا بقبح صنيعهم،

ويتأملوا في وخامة عواقبهم، فانصرفوا عما هم عليه نادمين؛
إذ { لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ } على الفور،
لكنْ أمهلهم بمقتضى رحمته وحكمته زماناً لا دواماً رجاء أن يتوبوا،
ويرجعوا حوه تائبين آيبين { بَل لَّهُم }أَيِّ:بل لهلاكهم،

{ مَّوْعِدٌ } لا نفع فيه التلافي والتوبة، وهو يوم الحشر والجزء، وقيل: يوم بدر { لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً } [58] منجيّ ومَخْلصاً بل يُعذبون ويُهلكون فيه حتماً، بحيث لا يسع لهم التقدم والتأخر أصلاً .

(وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ) التي في مرآك أطلالهم، وآثار منازلهم ومزارعهم { أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ }أَيِّ:حين خرجوا عن مقتضى حدودنا وأوامرنا ونواهينا المنزلة في كتبنا لرسلنا وكذبوهم وأنكروا عليهم.

{ وَ } من سنتنا القديمة أنَّا متى أردنا إهلاك قريةٍ من المستوجبين للمقت والهلاك { جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم }أَيِّ:هلاكهم وإهلاكهم { مَّوْعِداً } (59)

(وَ) اذكر يا أكمل الرسل قصة موسى الكليم عليه السلام وإعجابه لنفسه حين خطب على المنبر بعد هلاك القبط، ودخوله ملك مصر خطبةً عجيبةً بليغةً إلى حيث رقّت القلوب وذرفت العيون، فقيل له، هل في الأرض أعلم منك؟ قال: لا فعتب عليه سبحانه لإعجابه، فقال سبحانه:

" إن لنا في مجمع البحرين عبداً هو أعلم منك "

فقال موسى عليه السلام: دلني عليه يا ربي؛ لأخدمه وأتعلم منه، وأستفيد من فتوحات أنفاسه الشريفة، فقال له سبحانه:

" خذ حوتاً مملوحاً يكون زاداً لك واطلبه، فحيث فقدت الحوت فهو ثمة " فأخذ ومضى على الوجه المأمور.

اذكر وقت: { إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ } وهو يوشع بن نون، وكان خادمه { لآ أَبْرَحُ }أَيِّ:لا أقعد ولا أستريـح من السفر.

{ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ } ملتقى بحر فارس والروم وأجد عنده
من دلني الله عليه { أَوۡ أَمۡضِيَ } وأسير .

{ حُقُباً } [الكهف: 6] زماناً طويلاً ومدةً مديدةً إن لم أجده هناك حتى أجده
وأستفيد منه، فرمى الحوت المشوي المملوح في مكتلٍ، وحمله يوشع
فذهبا، وأوصى موسى لفتاه متى فقدت الحوت أخبرني.

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا) أَيّ:بين البحرين { نَسِيَا } عند المجمع

{ حُوتَهُمَا } يعني: نسي موسى التفقد والاستخبار من يوشع عنه، ونسي
يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من أمر الحوت وحياته ووقوعه في الماء.

وذلك أنه عزم يوشع التوضؤ عند المجمع، وكان على شاطئ البحر
صخرةٌ، فتمكن يوشع عليها ليتوضأ، فانتضح الماء على مكتله،
فترشح على الحوت، فوثب من المكتل، ورمى نفسه في البحر
{ فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَباً } [61]أَيّ:صار الماء كالطاق
يسري الحوت تحته بسهولةٍ، فتعجب يوشع من حياته ووثبته في الماء
وسلوكه، فارتحلا متجاوزين من البحر تلك الليلة والغد
إلى الظهر فنسي يوشع ذكرَ ما رأى لموسى.

۞ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا (62)
قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ
إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا
نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً
مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67)

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا
وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ
حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ
قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي
مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا
زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (74)

(فَلَمَّا جَاوَزَا) من الصخرة يوماً وليليةً عَيياً وجاعا { قَالَ } موسى { لِفَتَـٰهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا }أيّ:الذي سرنا بعدما جاوزا الصخرة { نَصَباً } [62] تعباً وألماً ما كنا قبل كذلك.

(قَالَ) يوشع متذكراً متعجباً: { أَرَأَيْتَ } يا سيدي وقت { إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ } ورقدتَ عندها تستريح، وأنا أهمّ إلى التوضؤ وأمكن عليها لأتوضأ، فانتضح الماء إلى المكتل، فوثب الحوت نحو البحر، فاتخذ سبيله سرباً { فَإِنِّي } بعد تيقظك من منامك { نَسِيتُ ٱلْحُوتَ } وقصته مع غرابتها وندرتها وكونها خارقةٌ للعادة .

{ وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ }أيّ:أذكر عنده قصته العجيبة البديعة { وَ } كيف { ٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ } حين رمى نفسه { فِي ٱلْبَحْرِ عَجَباً } [63] أيّ:على وجهٍ يتعجب من جريه الرائي.

ولما سمع موسى من يوشع ما سمع من فَقْدِ الحوت على هذا الوجه سُرّ وفرح { قَالَ } على وجه الفرح والسرور: { ذَلِكَ } الأمر الذي وقع { مَا كُنَّا نَبْغِ } ونطلب من سرفنا هذا؛ إذ هو علامة وجدان المطلوب وأمارة حصول الإرب.

{ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا } على الفوز، فأخذا يقصان { قَصَصاً } [64]
لإزالة شدة السفر إلى أن وصلا الصخرة المعهودة { فَوَجَدَا } عندها
{ عَبْداً } كاملاً في العبودية والعرفان؛ لأنه { مِّنْ } خُلَّص { عِبَادِنَآ }
وخيارهم، لأنا من وفور جودنا وإنعامنا عليه { آتَيْنَاهُ } أعطيناه { رَحْمَةً }
كشفاً وشهوداً تاماً موهوباً له { مِّنْ عِندِنَا } تفضلاً
بلا عملٍ له في مقابلتها يقتضي ذلك .

{ وَ } مع ذلك { عَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا } بلا وسائل الكسب والتعلم والطب
والاستفادة، بل بمجرد توفيقنا وفضلنا إياه امتناناً له وإحساناً عليه
{ عِلْماً } [65] متعلقاً بالغيوب،؛ حيث أخبر بما وقع ويقع وسيقع.

فلما وصلا إليه وتشرّفا بشرف صحبته { قَالَ لَهُ مُوسَىٰ } على سبيل
الاستفادة والاسترشاد وحسن الأدب { هَلْ أَتَّبِعُكَ } أيها المؤيد الكامل
المتحقق بمراتب اليقين بتمامها الواصلُ إلى بحر الوحدة الخائضُ
في لججها { عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ } وتفيدني
{ مِمَّا عُلِّمْتَ } من سرائر المغيبات سوابقها ولواحقها { رُشْداً } [66]
بالتوراة، أَيِّ:أرشدتني مقدار استعدادي وقدر قابليتي.

قال: يا موسى كفى بالتوراة علماً، وببني إسرائيل شغلاً. قال موسى
في جوابه: إن الله أمرني بالاستفادة والاسترشاد منك فلا تمنعني؟

وبعدما ألحَ موسى { قَالَ إِنَّكَ } يا موسى بكمالك في العلوم الظاهرية
المتعقلة بوضوح القواعد الدينية، ونصب المعالم الشرعية،
وانتصاف الظالم من المظلوم، وانتقامه لأجله إلى غير ذلك
من الأمور السياسية { لَن تَسْتَطِيعَ } وتقدر { مَعِيَ صَبْراً } [67]

بل لا بدَّ لك متى اطلعت على ما يخالف الشريعة والوضع المخصوص الذي جئت به من عند ربك، ونزلتْ التوراةُ على مقتضاه، فعليك أن تمنعه أو تعترض عليه على مقتضى نبوتك ورسالتك على سبيل الوجوب،
والذي أنا عليه من العلوم المتعلقة بالسرائر والغيوب
قد يخالف أصلك وقواعدك فلن تستطيع حينئذٍ معي صبراً .

ثم اعتذر وقال: { وَكَيْفَ تَصْبِرُ } يا موسى { عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا } [68]أَيِّ:علماً وخبرةً واطلاعاً على سرِّه ومآله { قَالَ } موسى ملحاً عليه:

{ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ } وتعلق إرادته بصبري { صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً } [69]أَيِّ:ما أخالفك فيما تفعل وما تريد على جميع ما جئتَ به من المغيبات
الخارقة للعادات التي لم أُفز بسرائرها،
وهي مخالفةُ لظواهر الشرائع والأحكام .

وبعدما اضطره موسى إلى القبول { قَالَ } له الخضر على سبيل التوصية والتوطئة: { فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي } بعدما بالغت { فَلاَ تَسْأَلْني }أَيِّ: فعليك ألاَّ تفاتحني بالسؤال { عَن شَيءٍ } انكرتَه مني، ووجدتَه مخالفاً لظاهر الشرع { حَتَّىٰ أُحْدِثَ } وأبيِّن { لَكَ مِنْهُ ذِكْراً } [70] بياناً واضحاً كاشفاً عن إشكالك ودغدغتك بلا سبق سؤالٍ منك.

ثم لما تعاهدوا على هذا { فَٱنْطَلَقَا } يمشيان على ساحل البحر لطلب السفينة، فمروا على سفينة فاستحملا من أهلها، فحملوهما بلا نوالٍ، فقربوهما إلى الساحل { حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ }
على شاطئ البحر فَجرت، فلما بلغت اللجة .

{ خَرَقَهَا }أَيّْ:أخذ الخضر فأساً فقلع منها لوحاً أو لوحين، فلما رأى موسى منه ما رأى أخذ يسد الخرق بثيابه { قَالَ } له موسى حينئذ على سبيل نهي المنكر: { أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ } بخرقها { أَهْلَهَا } إذ من خرقها يدخل الماء فيها، فيغرقها ويغرق أهلها، واللهِ { لَقَدْ جِئْتَ } بفعلك هذا { شَيْئاً إِمْراً } [71]أَيّْ:منكراً عظيماً هو قصدُ إهلاكك جماعةًبلا موجبٍ شرعي.

(قَالَ)له الخضر على سبيل التذكير والتشنيع:{ أَلَمْ أَقُلْ } لك يا موسى من أول الأمر { إِنَّكَ}باعتيادك بظواهر العلوم{ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً } (72)

(قَالَ) موسى معتذراً متذكراً لعهده:{ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} أَيّْ:بنسياني وغفلتي عن وصيتك وعهدي معك

{ وَلاَ تُرْهِقْنِي }أَيّْ:لا تغشني ولا تحجبني { مِنْ أَمْرِي } الذي بعثني على متابعتك، وهو الاطلاع على سرائر الأمور ومغيباتها { عُسْراً } [73] أَيّْ:لا تحجبني عن مطلوبي بالمؤاخذة على النسيان عسراً يلجئني إلى ترك متابعتك، فيفوت غرضي ومطلوبي منك وبعدما ألح واقترح معتذراً قَبِل الخضر بالضرورة عذره، ثم لما نزلا من السفينة .

{ فَٱنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلاَماً } صبيحاً صبياً لم يبلغ الحلم يلعب مع الصبيان { فَقَتَلَهُ } الخضر فجأة على الفور بلا صدر ذنبٍ منه وجريمةٍ؛ بأن أخذ رأسَه وضرب إلى الجدار فجأة على الفور بلا صدور ذنبٍ منه وجريمةٍ؛ بأن أخذ رأسَه وضرب إلى الجدار إلى أن مات،

فاشتدَّ الأمر على موسى وامتلأ من الغيظ ولم يقدر كظمه، { قَالَ } على سبيل التقريع والتوبيخ: { أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً } معصومة بريئة من جميع الآثام { بِغَيْرِ } إهلاك { نَفْسٍ } صدر منه قصداً؛ ليكون قتله قصاصاً عنه شرعاً، مع أنه لا ولاية لك حينئذٍ على قتله وإن صدرَ عنه

القتل عمداً، والله { لَّقَدْ جِئْتَ } بإتيانك هذا { شَيْئاً نُّكْراً } [74]
في غاية النكارة؛ إذ قتل النفس من أعظم الكبائر سيّما النفس المعصومة
المنزهة عن جميع المعاصي، سيمّا بلا جرمٍ أصلاً.

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ
عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (76) فَانطَلَقَا
حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا
جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77)
قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا
(78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ
مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ
فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِيۚ
ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82) وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِۖ
قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (83)

وبعدما سمع الخضر منه إنكاره { قَالَ } له على سبيل التشدد والغلظة:
{ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ } وتطيق { مَعِيَ صَبْراً } [75] إذ لا مناسبة
بين وبينك، ولا موافقة لعلمي مع علمك، فخلني على حالي ولا تشوشني،
وانصرفْ عني وامض حيث شئت، فقد بلغت الطاقة.

ثم لما رأى منه موسى ما رأى من الغيظ والحرارة: { قَالَ } معتذراً
مستحيياً: لا تحرمني عن صحبتك مما صدر عني من نقض العهد وسوء
الأدب، ولا تردني يا سيدي { إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَٰحِبْنِي }

ولا تجعلني رفيقك وصاحبك؛ لأنك { قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي }
ومن قِبلي وأجلي { عُذْراً } [76] فلا أعتذر لك بعد هذا،
بل أفارقك إن وقع مني ما يشوشك .

عن رسول الله ﷺ قال: " رَحِمَ اللهُ أَخِيْ مُوْسَى اسْتَحَى فَقَال ذَلِكَ،
لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لأَبْصَرَ أَعْجَبَ الأَعَاجِيْبِ "

(فَٱنطَلَقَا) بعدما تقاولا في أمر العلوم ما تقاولا { حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ }
هي أنطاكية أو أيلة { ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا } من شدة جوعهما واحتياجهما
إلى الطعام { فَأَبَوْاْ } وامتنعوا { أَن يُضَيِّفُوهُمَا } يميلوهما إلى نيل الطعام
ونواله { فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ }أَيِّ:يميل ويُشرف
{ أَن يَنقَضَّ } أَيِّ:يسقط وينهدم { فَأَقَامَهُ } الخضر وعدَّله وسواه
بالعمود وأسقطه وأحكم بنيانه جديداً.

ثم لما رأى موسى منه أمراً مستغرباً مستبعداً، وهو أنهما على جناح
السفر، لوم يكن لهما شغلُ وغرضُ متعلقُ بتعمير الجدار وإقامته { قَالَ }
على سبيل التعرض بأنه فضول: { لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً } [77]
وأخذت جعلاً واكتسبت التقوت والزاد بعدما أبوا عن الضيافة.

ثم لماسمع الخضر من موسى ما سمع: { قَالَ هَـٰذَا }أَيِّ:سؤالك
وتعريضك هذا { فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ }أَيِّ:يوجب مفارقتي عنك،
لكن لا أفارقك في الحال بل { سَأُنَبِّئُكَ } وأخبرك { بِتَأْوِيلِ مَا }أَيِّ:بتأويل
الأمور التي أنكرت عليها، واعترضتَ مفتتحاً إياها مستعجلاً
بحيث { مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً } [78] حتى أحدّثك وأبينك سرائرها
مع أني أوصيتك أولاً ببيانها.

ثم فصلها فقال: { أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ } التي خرقتُها بإلهام الله إياي، وإلقائه على قلبي { فَكَانَتْ } هي { لِمَسَاكِينَ } ضعفاء ـ لا مكسبَ لهم سواها { يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ } بها ويعيشون من نولها { فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا } أَيِّ:أجعلها ذاتَ عيب { وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ } ظالمَ سيئ عليهم، وهو { يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ } صحيحةٍ غير معيبةٍ { غَصْباً } [79] ظلماً وزوراً بلا فديةٍ، فجعلتها ذاتَ عيبٍ حتى تبقى لهم، وذلك بإذنٍ من الله عنايةً منه سبحاه لضعفاءعباده ورعاية لحالهم ومصلحتهم.

(وَأَمَّا ٱلْغُلاَمُ) الذي قتلته على الفور، فهو غلامٌ قد جبله الله على الكفر والعصيان وأنواع الشرك والطغيان { فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ } موحدين مسلمين { فَخَشِينَآ } عليهما من سوء فعاله وقبح حاله { أَن يُرْهِقَهُمَا } ويغشيهما ويغطيهما { طُغْيَاناً وَكُفْراً } [80] من غاية حبهما له وتحننهما إياه .

{ فَأَرَدْنَآ } وأحببنا بقتله وهلاكه { أَن يُبْدِلَهُمَا }أَيِّ:يرقهما ويهب لهما { رَبُّهُمَا } الذي ربَّاهما بنعمة التوحيد والإيمان وكرامة العصمة والعفاف ولداً { خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً }أَيِّ:طهارةً مطهرةً عن خبائث الكفر والآثام،

متصفةً بجبلة الإيمان والإسلام { وَأَقْرَبَ رُحْماً } [81] مرحمة وعطفاً وبراً على الوالدين ولطفاً. قيل: وُلِدَت له جارية بدل الغلام، فتزوجها نبي من الأنبياء، فولدت نبياً هدى الله به أمةً من الأمم.

(وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ } الذي أردتُ إقامته، وقصدتُ تعميره بإلهام الله ووحيه {فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ} ولم يبلغا الحلم { وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا } مدفونُ مخزونُ من ذهبٍ وفضةٍ { وَكَانَ أَبُوهُمَا } رجلاً { صَالِحاً } موحداً مسلماً، متوجهاً نحو الحق دائماً

{ فَأَرَادَ رَبُّكَ } يا مسى من كمال لطفه وعطفه لليتيمين ورعايةً للأب الصالح { أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا } ويدخلا رشدهما ويخرجا عن اليتم؛ إذ لا يتم بعد البلوغ، ويصيرا ذوي رأيٍ رزين وفكرٍ بيّنٍ.

{ وَ } بعد ذلك { يَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا } وإنما أمرني الله سبحانه بإقامة الجدار وإحكام المخزن { رَحْمَةً } وعطفاً { مِّن رَّبِّكَ } يا موسى شاملةً إياهما تتميماً لتربيتهما وتقويتهما.

(وَ) بالجملة:

{ مَا فَعَلْتُهُ } وأنكرتَ عليه واعترضتَ وتعرضتَ عليه ليس صادراً { عَنْ أَمْرِي } ورأيي نائشاً عن تدبر عقلي وفكري، بل مما ألهمني الله به وهاني عليه وأمرني بفعله، فأنا مأمورٌ والمأمور معذورُ { ذَلِكَ } المذكور على التفصيل { تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع } ولم تُطِقْ { عَّلَيْهِ صَبْراً } [82] حتى ظهر لك سره.

ومما جرى بينهما - صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهما - يتفطن العارف اللبيب والطالب الأريب الأديب أن شرطَ الاستفادة والاسترشاد، ومناطَ الاستكمال وطلب الرشاد، هو أن يميت المريد المسترشد نفسَه عند المرشد الكامل المكمّل بالموت الإرادي؛ بحيث لا يتصدى إلى معارضته ومقابلته، وإن جزم أنّ فعلَ المرشد خارجُ عن مقتضى العقل الشرع على زعمه، بل حمل فعله على المحمل الأصوب،

وسكتَ عن الجدال والمقابلة؛ إذ بعدما فوض أمره كله إلى مرشده واتخذه وكيلاً وأخذه ضميناً وكفيلاً، فقد فنيَ فيه وبقي ببقائه، فلم يبقَ له التصرف أصلاً بمقتضيات قواه وجوارحه ومداركه ومشاعره

هب لنا ربنا من لدنك رحمةً تنجينا عن تسويلات نفوسنا.
ثم قال سبحانه على وجه التنبيه لحبيبه محمد ﷺ: { وَيَسْأَلُونَكَ }
يا أكمل الرسل،أَيّ:المردودون و المطرودون سؤالَ اقتراحٍ وامتحانٍ
مثلَ سؤال أصحاب الكهف والروح .

{ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ } وأطواره وكيفية سيره وطوافه حول العالم
{ قُلْ سَأَتْلُواْ } وأقرأ وأذكر { عَلَيْكُم مِّنْهُ }أَيّ:من ذي القرنين وقصته
{ ذِكْراً } [83] قد أخبرني به سبحانه بالوحي في كتابه المعجز،
سُمِّي بذي القرنين؛ لأنه طاف قرني الدنيا؛
أَيّ:المشرق والمغرب، اختُلف في ولايته ونبوته.

۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (85)
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا
قَوْمًاۗقُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86)
قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (87) وَأَمَّا
مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰۖوَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (88)
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (89) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ
لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (90) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (91) ثُمَّ
أَتْبَعَ سَبَبًا (92) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94)
قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (95)
آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِۖحَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواۖ
حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (96) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ
وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97)

أخبر عنه سبحانه بقوله: { إِنَّا } من مقام عظيم جودنا وفضلنا
{ مَكَّنَّا لَهُ } وقدرناه { فِي ٱلأَرْضِ } تمكناً تاماً وقدرة كاملة { وَ } ذلك
{ آتَيْنَاهُ } أعطيناه تأييداً له وتعضيداً { مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } [84] موصلاً
إلى مبتغاه وما أَمِلَه؛ يعني: وفَّقنا وهيأنا أسبابه للوصول
إلى كل مطلوبٍ قَصَدَه وأراد الوصول .

{ فَأَتْبَعَ سَبَباً } [85] حتى ارتكب أمر الوثوقة واتكاله علينا،

وبإنجاحنا إياه إلى مبتغاه.

ثم لما أراد أن يسير نحو المغرب، فاتبع سببه وسار
{ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ }أَيِّ:موضعاً تغيب الشمس فيه؛
يعني: لم يبلغه حقيقةً، وإنما بلغ قوماً ليس وراءهم؛أَيِّ:نهاية حد العمارة
من جانب المغرب على ساحل المحيط { وَجَدَهَا }أَيِّ:الشمس
{ تَغْرُبُ } وتغيب { فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ }أَيِّ:ذات حمأة وهي الطين والماء،

وقرئ: " حمية "أَيِّ:حارةٍ ويجوز أن يكون عيناً ذات حماءةٍ حرارةٍ،
يعني: غروبها في رأي العين على عين صفتها هذه، وإلا فلا تسع الشمس
في جميع كرة الأرض، فكيف بجزءٍ منها؛ إذ نسبه كرة الأرض إلى عظم
جرم الشمس عند أهل الرصد كنسبةِ جزءٍ من مائةٍ وست وستين جزءاً .

(وَوَجَدَ عِندَهَا)أَيِّ:عند العين الموصوفة { قَوْماً } كفاراً نافين للصانع
الحكيم، لباسُهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظ البحر بالموج
من أنواع الحيوانات الميتة، فلما وصل ذو القرنين إليهم ووجدهم كفاراً،
خيرناه في أمرهم عنايةً منا بأن { قُلْنَا } له وألهمنا عليه منادياً:
{ يٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ } لك الخيار في شأن هؤلاء الكفار .
{ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ }أَيِّ:تهلكهم وتستأصلهم بكفرهم؛

بحيث لا يبقى منه أحد { وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ } وتصنع { فِيهِمْ حُسْناً }شرعاً وديناً كما في سائر المؤمنين.

ثم لما خُيّر ذو القرنين في أمرهم، وفُوِّض أمرُهم إليه: { قَالَ } على مقتضى العدل والإنصاف الذي جبله الحق عليه: ادعوهم أولاً إلى الإيمان، وألقِ عليهم كلمة التوحيد والعرفان:

{ أَمَّا مَن ظَلَمَ } واستعلى وأبى وأصرّ على ما عليه من الكفر منه والهوى { فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ }أَيِّ:نقتله حداً بعد عرض الإسلام، ولم يقبل في دار الدنيا { ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ } في يوم الجزاء { فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً } [87] شديداً مجهولاً لا يعرفه أهل الدنيا.

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ } منهم { وَعَمِلَ } على مقتضى الإيمان عملاً { صَالِحاً } فنصلح حالهم، ونراعيه في الدنيا { فَلَهُ } في يوم الجزاء عند واهب العطايا { جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ } والمثوبة العظمى والدرجة العليا والجزاء الأوفى { وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا } الذي أمرنا بالتخير في أمر أولئك الهالكين في تيه الغواية { يُسْراً } [الكهف: 88] سهلاً معتدلاً بين إفراط القتل والاستئصال، وتفريط الإبقاء على الكفر والضلال مداهنةً.

(ثُمَّ) بعدما وضع بين أهل المغرب الشرعَ بالأمر الإلهي { أَتْبَعَ سَبَباً } [89] آخر يوصِله إلى المشرق، وسار { حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ } وموضع شروقه وإضاءته على العالم { وَجَدَهَا تَطْلُعُ } وتضيء أولاً ،

{ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْر } [90] يعني: لم نجعل لهم حائلاً كثيفاً وحجاباً غليظاً؛ ليكون ستراً لهم من حرّ الشمس وقت طلوعها لا من الجبل ولا من الحجر والشجرة وغيرها، بل كلهم عزلُ عراةُ

لا لباس لهم أصلاً، وهم يحفرون الأرض، ويتخذون سراديب وأخاديد بدل الأبنية؛ لأن أرضهم لا تمسك البناء.

{ كَذَلِكَ }أَيِّ:هم أيضاً كفارُ مثل أهل المغرب، وهم أشدُّ الناس في الحروب والمعارك وأجرئهم على القتال والاقتحام في الوعاء، ولهم آلاتُ واسلحة عجيبةُ وعُدَدٌ بديعة لا كمثل سائر آلات الناس وعُدَدهم، وهم أكثرهم أيضاً عدداً.

(وَ } مع كثر عددهم ومركهم وخداعهم { قَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً } [الكهف: 91] يعني: أعلمنا إسكندرَ ومن عنده من الجند والخدمة علماً بجال أعدائهم، فقاتلوا معهم وغلبوا عليهم، فوضع عليهم أيضاً شعائر الإسلام مثل ما وضع لأهل المغرب { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً } [92] ثالثاً، وسار على العرض بين المشرق والمغرب .

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ)أَيِّ:بين الجبلين اللذين سدَّ بينهما ذو القرنين بسدٍ منيعٍ، وهما جبلا يأجوج ومأجوج { وَجَدَ مِن دُونِهِمَا }أَيِّ:عندهما { قَوْماً } أعجمياً { لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ } ويفهمون { قَوْلاً } [93] لغةً من اللغات المتداولة .

(قَالُواْ) بلسان الواسطة والترجمان: { يٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ } نحن أناس ضعفاء مظلومون نحتاج إلى إعانتك؛ لتنقذنا من يد الظلمة { إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ } عَلَمَان للقبيلتين من الترك هما { مُفْسِدُونَ فِي ٱلأَرْضِ } أَيِّ:في أرضنا هذه بأنواع الفسادات.

قيل: كانوا يخرجون في الربيع فلا يتركون أخضر ربطاً إلا أكلوه، ولا يباساً إلا حملوه، وقيل: كانوا يأكلون الناس أيضاً.
{ عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ } بسطوتك وسلطتك { بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً } [94]

منيعاً لا يمكنهم الخروج علينا فنأمن شرهم بجاهك.
(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً) جُعلاً نوزع بيننا فيبلغ مبلغاً وافياً .

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ)أَيّْ:ما جعلني وخصني ربي بفضله وجوده مكيناً من المال والملك خير مما تجمعوت بتوزيعكم وتخريجكم، ولا حاجة إلى أموالكم بل إلى إعانتكم وسعيكم أُجراء { فَأَعِينُونِي } في وضع هذا السد { بِقُوَّةٍ }أَيّْ:عملةٍ وصنَّاع يأخذون مني أجرتهم ويعلمون.
{ أَجْعَلْ } بفضل الله وسعة جوده إن تعلق به مشيئته
{ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً } [95] حاجزاً حصيناً منعياً وثيقاً؛
بحيث لا يقبل التخريب إلى انقراض الدنيا.

(آتُونِي) وأحضروا عندي أولاً { زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ }أَيّْ:قطعها الكبيرة، فَأَتَوا بها فأمرهم بحفر الأرض إلى أن وصل الماء، فوضع الأساس من الصخر النحاس المذاب حتى وصل وجه الأرض، ثم أمرهم بتنضيد قطع الحديد بأن وضعوا بين كلا قطعتي الحديد فحماً وحطباً،

وأمرهم بارتفاعهم هكذا { حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ }أَيّْ:بين جانبي الجبلين حتى امتلأ بين الجبلين، وصار ما بينهما مساوياً للطرفين في الرفعة، ثم أمرهم بوضع المنافع العظام من كلا طرفي السد.

ثم { قَالَ } لهم: { ٱنفُخُواْ } فنفخوا { حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً }أَيّْ:جعل المنفوخ فيه مثل النار في اللون الحرارة، فاحترق الحطب والفحم، واتصل بالزُبَر المحماة وبقيت فُرَجُ صغارُ إلى حيث لم تصل إلى الملاسة والاستواء { قَالَ آتُونِيۤ } نحاساً مذاباً { أُفْرِغْ } وأصب { عَلَيْهِ قِطْراً } [96] حتى يصير ملساءً مسوى لا فُرجَ لها، ولا يرى أوصالها أصلاً فصَبّ فاستوى فصار أملس كأنه لا فُرجَ فيه أصلاً.

(فَمَا ٱسْطَاعُوٓاْ)أَيِّ:ما قدر يأجوج ومأجوج { أَن يَظْهَرُوهُ } ويصعدوا عليه ويعلوا لارتفاعه وملاسته { وَمَا ٱسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً } [97]

لعمقه وغلظة كننه.

۞ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيۖفَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَۖوَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍۖوَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (100) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (102) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (106) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (108) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (109) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌۖفَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)

فلما تم السد واستوى { قَالَ } ذو القرنين مسترجعاً إلى الله شاكراً لأنعمه: { هَـٰذَا }أَيِّ:إتمام هذه السد على الوجه الأسَدّ الأحكام { رَحْمَةٌ } نازلةُ عليّ { مِّن رَّبِّي } إذ لولا توفيقه وتمكينه لما صدر عني بقوتي أمثال هذا { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي } وقرُب قيام الساعة، وظهر أماراتها وأشراطها.

ومن جملة أماراتها: خروج يأجوج ومأجوج { جَعَلَهُ } سبحانه هذا السد السديد الرفيع { دَكَّآءَ }أَيِّ:مدكوكاً مسوى مفتتاً أجزاؤه؛ بحيث لم يبقَ له ارتفاع أصلاً، وهم حينئذ يخرجون على الناس { وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي } بقيام الساعة واستواء الأ رض،وكونها دكاً بحيث لا عِوجَ لها ولا أمتاً { حَقّاً } [98] ثابتاً محققاً لا شبهة فيه .

ثم قال سبحانه: { وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ }أَيِّ:وبعدما جعلنا الأرض مبسوطة مدكوكة بمقتضى قهرنا وجلالنا، وجعلنا السد السديد الرفيع المنيع مسوى، أخرجنا يأجوج ومأجوج بإقدارنا إياهم بالخروج،

وتركنا بعض الناس يموج ويزدحم ويدخل من صولتهم واستيلائهم بعضاً مضطربين ومضطرين، { وَ } هم في ذلك الاضراب والتشتت من استيلاْ أولئك الظلمة القهارين القتّالين { وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ } للحشر إلى المحشر وقامت الطامة الكبرى { فَجَمَعْنَاهُمْ } حينئذ؛أَيِّ:جميع الخلائق للعرض والحساب { جَمْعاً } [99] مجتمعين في المحشر.

{ وَ } بعد جمعنا إياهم { عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ }أَيِّ:يوم الحشر { لِّلْكَافِرِينَ} المعرضينَ المكذبينَ للرسل والكتب، المنكرينَ ليوم العرض والجزاء { عَرْضاً } [100] على سبيل الإلزام والتبكيت للقوم،

{ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ } في النشأة الأولى { فِي غِطَآءٍ } وغشاوةٍ كثيفةٍ { عَن ذِكْرِي }أَيِّ:عن آياتي الدالة على ذكري المؤدي إلى التفكر والتدبرفي آلائي ونعمائي، المؤدي إلى ملاحظة ذاتي المنتهية إلى المكاشفة والمشاهدة للمؤمنين المؤَيدين من عندي،

المنجذبين نحو توحيدي { وَكَانُواْ } أيضاً { لاَ يَسْتَطِيعُونَ } ولا يقدرون { سَمْعاً } [101]أَيِّ:إصغاءً والتفاتاً؛أَيِّ:استماع كلمة الحق

لتعطيلهممن خبث فطرتهم وطينتهم نعمةَ الحق الموهوبة لهم لاستماع كلمة الحق وإصفاء دلائل التوحيد عن مقتضاها.

ثم قال سبحانه على سبيل التقريع والتوبيخ للكفرة المشركين المتخذين آلهة سوى الله من مصنوعاته ومخلوقاته: { أَفَحَسِبَ } وظن القوم { ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ } وأشركوا بسبب { أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ } مثل عزير وعيسى وجميع الأوثان والأصنام { أَوْلِيَآءَ } آلهة يعبدونهم كعبادتي أنا لا نأخذهم ولا ننتقم منهم في يوم الجزاء؟! كلا وحاشا.

وكيف لا نأخذهم { إِنَّآ } من كمال قهرنا وغضبنا على من أشرك بنا غيرناَ، وأثبت إلهاً سوانا { أَعْتَدْنَا } وهيأنا { جَهَنَّمَ } البعد والخذلان الممتلة بنيران الحرمان { لِلْكَافِرِينَ } المعرضين عن مقتضيات آياتنا وكتبنا ورسلنا { نُزُلاً } [102]أَيِّ:منزلاً معداً ينزلون فيها يوم الجزاء نزول المؤمنين في جنة الوصال ومقر الآمال.

(قُلْ) يا أكمل الرسل للمشركين المتخذين أرباباً من دون الله من مصنوعاته، يعبدونهم مثل عبادته، وينكرون توحيده، ويكذبون كتبه ورسله المبينة لأحوال النشأتين { هَلْ نُنَبِّئُكُم }أَيِّ:نخبركم ونرشدكم أيها المنهمكون في الخسران والطغيان { بِٱلأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً } [103] أَيِّ:العاملين الذين خسروا من جهة أعمالهم مع أنهم زعموا الربح فيها.

وهم: { ٱلَّذِينَ ضَلَّ }أَيِّ:بطل وضاع { سَعْيُهُمْ } الذين سعوا { فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا } بإتيان الأعمال الصالحة والإنفاق، وبناء بقاع الخير وغير ذلك، وكذا عموم أهل العجب والرياء منأَيِّ:أمةٍ كانت { وَهُمْ } في النشأة الأولى { يَحْسَبُونَ } ويظنون { أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [104]

ينفعهم عند الله، ويتوقعون المثوبة العظمى والدرجة العليا لأجلها، مع أنهم خاسرون خسراناً مبيناً؛ لفقدهم ما هو مبني الأعمال ومناط العبادات، وهو الإيمان بتوحيد الله والتصديقُ بكتبه ورسله.

(أُوْلَـٰئِكَ) البعداء الأشقياء المجبولون على الكفر والشقاق هم { ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ } وكذبوا { بِآيَاتِ رَبِّهِمْ } الدالة على توحيده وتصديق رسله وكتبه { وَلِقَائِهِ } الموعود لعباده عند إنجلاء جميعهم وارتفاع أستارهم { فَحَبِطَتْ }أَيِّ:ضاعت واضمحلت وضلت في النشأة الأخرى.

{ أَعْمَالُهُمْ } التي جاءوا بها في النشأة الأولى، ولطلب النفع والربح { فَلاَ نُقِيمُ } ونضيع { لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ } المعدة لجزاء الأعمال وتنقيدها { وَزْناً } [105] مقداراً يُنتفع ويُعتد بها؛ لانحباطها وسقوطها عن درجة الاعتبار لدى الملك الجبار.

بل: { ذَلِكَ } العلم المترتب على الكفر والشرك { جَزَآؤُهُمْ } ونفعهم العائد لهم لأجل أعمالهم في يوم الجزاء { جَهَنَّمُ } البعد والحرمان، وسعيرُ الطرد والخسران { بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوۤاْ }أَيِّ:بكفرهم واتخاذهم . { آيَاتِي وَرُسُلِي } المؤيدين بآياتي، المبعوثين على تبيين دلائل توحيدي بين عبادي { هُزُواً } [106] محل استهزاء يستهزئون وينكرون عليها عتواً وعناداً ، ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد .

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ } وأيقنوا بتوحيد الذات والصفات والأفعال { وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ } المقربة إلى التوحيد الذاتي، الملائمة المناسبة لشعائره ومناسكه { كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ } وهو وسط الجنة المشرف على أطرافها المرتفع منها.

لذلك قال ﷺ: " إِذا سَألتُمُ الله فَأسألُوا الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسَطُ الجَنَّةِ "

وهو بستان الغيب ومهبط الفتوحات الغيبية، وأيضاً هو أعلى مراتب التوحيد، وعند ذلك انتهى السير والسلوك، وبعد ذلك السلوك فيه لا إليه وبه { نُزُلاً } [107] أَيِّ:منزلاً ينزلون إليه ويتمكنون.

(خَالِدِينَ فِيهَا } ولصفائها ونضارتها، ودوام لَذَّاتها الروحانية وفيوضاها { لاَ يَبْغُونَ } ولا يطلبون بالطبع والإرادة { عَنْهَا حِوَلاً } [108]أَيِّ:انتقالاً وتحويلاً؛ لكونه مقر فطرتهم الأصلية ومنزل استعداداتهم الحقيقية؛ إذ فوقه عرش الرحمن المفيض
لجميع القوابل والاستعدادات مقتضياتها.

ثم لما طعن اليهود في القرآن، وأرادوا أن يثبتوا التناقض في بعض آياته مع بعض؛ حيث قالوا: أنتم تقرأون في كتابكم تارة: { وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً } [البقرة: 269]وتارة تقرأون:{ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } [الإسراء: 85] وما هو إلا تناقض صريح.

أمر سبحانه حبيبه بقوله: { قُل } لهم يا أكمل الرسل كلاماً يُسقط شبهتهم إن أنصفوا، نحن لا ندعي أن من أوتي الحكمة فقد أوتي بجميع معلومات الله وعلومه، وكيف ندَّعي هذا وهو ممتنع محالُ في غاية الامتناع والاستحالة؛

إذ { لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ }أَيِّ:جنس البحر، وهو جميع كرة الأرض{مِدَاداً }أَيِّ:ماء يُمدُّ به القلم للرقم والكتابة { لِّكَلِمَاتِ رَبِّي }أَيِّ:لثبتها وكتبها { لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ } وانتهى ألبتة؛ لتناهيه وكونه محدداً.

{ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي } لكونها غير متناهية { وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ } غير محدودةٍ بحدٍ معين، وكيف لا تنفد وتتناهى { وَ } أَيِّ:بمثل جنس

البحر بل بأضعاف أمثاله وآلافها { مَدَداً } [109] إذ لا مناسبة بين المتناهي وغير المتناهي، وإن فرض أضعافا وآلافاً.

{ قُلْ } يا أكمل الرسل بعدما بلغت لهم كلمات الله الغير المحصورة كلاماً خيالياً عن وصمة التفوق، والتفضل المفضي للرعونة ناشئاً عن محض الحكمة والفطنة: { إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ } قابل للعلوم الإدراكات على مقتضى البشرية، لا فرق بيني وبينكم بحسب الفطرة،

غاية في الأمر أنه { يُوحَىٰ إِلَيَّ } ويُفاض إفاضة علمٍ و عين حقٍ { أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ } ومعبودكم ومُظهركم { إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ } أحدٌ صمد فرد وتر، ليس له شريكُ ولا نظيرُ ولا وزيرُ، بل هو مستقلُ في الوجود والإيجاد والإظهار، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد استقلالاً إرادةً واختياراً، وإنما امتيازي عنكم بهذا.

{ فَمَن كَانَ } منكم { يَرْجُواْ } رجاءَ مؤملٍ بصيرٍ { لِقَآءَ رَبِّهِ } مكاشفةً ومشاهدةً { فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً } قالعاً لأصل أنانيته وهويته، قامعاً لمقتضيات أوصاف بشريته وبهيميته، مزيلاً لذمائم أخلاقه وأطواره { وَ } مع ذلك { لاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً } [110] من خلقه، أيِّ:لا يقصد من عمله وعبادته الرياءَ والسمعةَ والعُجبَ والنخوة.

" قال رسول الله ﷺ: " أَخوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّركُ الأَصْغَرُ

قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: " الرِّيَاءُ "

وقال تبارك وتعالى: " أنا أغْنى الشُّركاء عن الشِّركِ، فَمَنْ عَمِل عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِيْ فَأنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ الَّذِيْ عَمِلَهُ لأَجْلِهِ "

وبالجملة:

يعمل على وجهٍ يسقط الكثرة والاثنينية لا على وجهٍ يؤيدها ويكثرها، بل العامل العارف لا يطلب لعلمه الجزاء أيضاً، بل إنما يعلم امتثالاً لأمره سبحانه وطلباً لمرضاته، ولا يخطر بباله شيء سواه.

جعلنا الله ممن تحقق بمقام التوحيد، وأمَّنه عن توهم الرياء والتقليد، وحفظه من كل شيطان مريد.

خاتمة السورة

عليك أيها الموحد القاصد للتحقق في مقام التمكن من التوحيد قرَّرَك الله في مقعد صدقك ويقينك، وثبتك في مقر تثبيتك وتمكينك، أن تحفظ أعمالك التي جئت بها متفرقاً الوصولَ إلى محل القبول عن مداخل الرياء والسمعة والعجب وأنواع الرعونات؛

إذ هي كلها شباكُ الشيطان وعقاله، يقيد بها خواص عباد الله، ويلهيهم بها عما هم عليه من الرضا والتسليم، ويوقعهم في فتنةٍ عظيمةٍ ومعصيةٍ كبيرةٍ مستلزمةٍ للشرك بالله، العياذ به من غوائل الشيطان وتسويلاته ويخلصها لمحض وجهه الكريم.

فعليك أن تلازم العزلة، وتداوم الخلوة حتى لا يلحقك من الخلطة أمثال هذه الأمراض العضال، وأيضاً لك أن تجلي خاطرك وتصفي ضميرك عن هواجسك المتعلقة بأمور معاشك بين بني نوعك، فإن أكثر عروض هذه الأمراض ما يحصل من الأماني واللذات الوهمية من الجاه والثروة والتفوق على الأقران وغير ذلك.

وإن شئت أن يسهل عليك الأمر فاشغل جوارحك لكسب ضرورات معاشك في بعض الأحيا، واقنع بأقل المعيشة وسدّ الرمق، واحذر عن فضول العيش، فإن أكثر فحول الرجال قد استرق بفضول الأماني والآمال.

وبالجملة:

نعم القرين العزلة، والفرار عن تغريرات الدنيا الغدارة المكارة، والخمول في زوايا الكهوف والأغوار عن اختلاط أصحاب الخسار والبوار وِفقنا بفضلك وجودكَ بما تحب منا وترضى.

والله سبحانه وتعالى أعلم

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

{ وصلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ ﷺ وآلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليماً }

تم بفضل الله وحمده

الهرم على بن أبى طالب

راجى كرم الله ورحمته

قدرى جاد

2026/5/5

وإلى لقاء مع تفسير آخر لسورة الكهف